محمد عنانى

زوجة أيوب

قصة شعرية

القاهرة ٢٠٠٤


الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٤

الإخراج الفنى والغلاف

أميمة على أحمد

تصدير

هذه قصة شعرية أو قصيدة قصصية ، تتناول حادثة حقيقية وقعت فى مدينة رشيد ، فى أربعينيات القرن العشرين ، وشهدت بنفسى طرفًا منها ، وإن كنت صغيرًا ، وهى تقوم - مثل **حكاية معزة** - على الراوى الذى يحكى القصة إلى حشد فى بلدته ، كما يروى عن راوية آخر أصغر سنًّا ، ويلتزم الراوى الهرم بتقاليد البحر الشعرى الذى اختاره (ولو لجأ إلى الشطرة الخماسية) ، بخلاف الراوى الصغير الذى يكثر من زيادة عدد التفعيلات فى البيت الواحد ، وقد تتفاوت فى روايته أطوال

الأبيات حتى فى الفقرة الواحدة ، ولكنهما يلتزمان جميعًا بالوزن والقافية الواحدة فى كل فقرة .

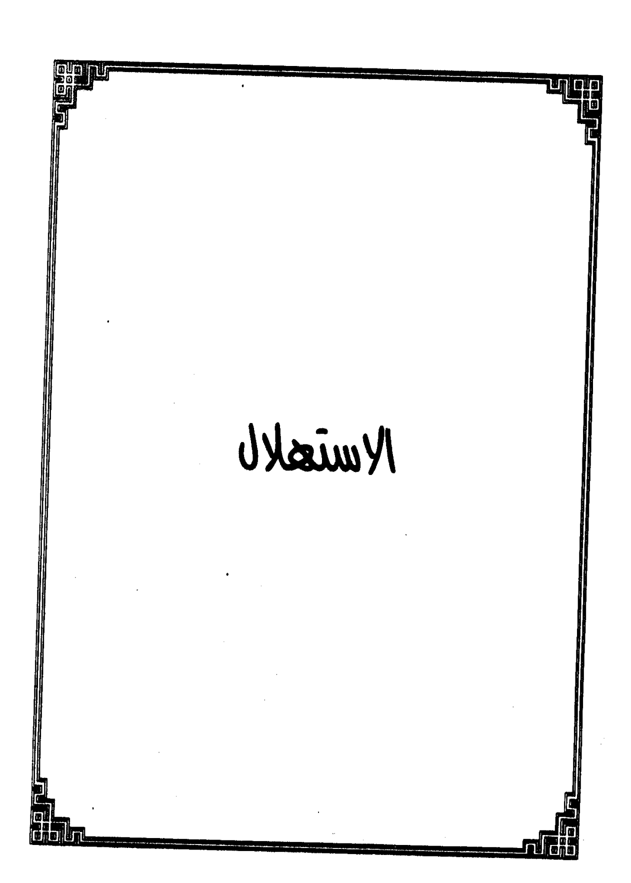
والقصة مكتوبة بالفصحى المعاصرة ، وفى فقرات طول كل منهما ١٦ سطرًا ، مثل **حكاية معزة** ، وتتكون مثل تلك القصة من أربعة أناشيد واستهلال وخاتمة ، وأما اختيارى للأصل الواقعى فقد تأثر بقراءتى **سِفْر أيوب** فى الكتاب المقدس، وما عرفته من التراث الشعبى عن 'صبر أيوب' والقصص المروية (والمكتوبة) عنه، دون التزام بما جاء فى التراث الدينى (المسيحىّ أو الإسلامىّ) عنه أو فى الروايات الشعبية ، فالمصدر الأول هو الحادثة الواقعية ، وإن كنت أضفيت عليها ما اقتضته المعالجة الشعرية من 'ألوان الخيال' (كما يقول الشعراء الرومانسيون الانجليز ، فابتعدت بعض الشىء عن الأصل الواقعى ، مثل تغيير اسم زوجة أيوب الأولى إلى جميلة والاستعانة بالراويين ، وإضافة ما يحدث للراوى الصغير فى ثنايا القصة .

والشعر القصصى أو القصص الشعرى نوع أدبى جديد نسبيًا فى الأدب العربى ، إذ لم يَشِعْ عند القدماء ، وإن كان

المحدثون قد أَحْيَوْه ، وله صوره المتعددة فى الأدب الشعبى (المكتوب بالعاميات المحلية) ولكنه عميق الجذور فى الآداب الأوروبية ، منذ الملاحم الكلاسيكية وحتى القرن التاسع عشر ، ولذلك فلا أريد أن أخوض فى أى قضية نقدية ، فما هذا إلا تصدير مقتضب ، ولا أريد أن أثقل على القارئ بمعايير القصص الشعرية فى الآداب الأوروبية وكيف تختلف عن معايير الشعر الغنائى (بالمعنى العلمى المحدد الذى يقابل مصطلح Lyrical الانجليزى) ومعايير القصة القصيرة الحديثة التى تكتب نثرًا ، فلهذه القضايا كتبها المتخصصة ، بل سأكتفى بأن أقول إننى أكتب حكاية منظومة ومقفاة ، بمنهج الشعراء الرومانسيين الانجليز ، ففى الشكل محاكاة ، وفى الجوهر قصٌّ شعرىٌّ لحادثة وقعت ورأيت فيها ما يصلح للمعالجة الشعرية وحسب .

محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠٤



الاستهلال



(١)

أعــودُ إليكمْ رفــاقَ المســاءِ
بشــعــرٍ قليلٍ وفنٍّ أَقَلّ
وكنتمْ طلبـتمْ نشـيـدًا جـديدًا
بِهِ وابلُ الفَـرْحِ أو قَطْرُ طَلّ
ولـكـنّ كُلَّ الـذى فـى الـحـنـايـا
بقـايا شـبـابٍ هزيلٍ ومَـحْلْ
فَـرَبَّةُ شـعـرِىَ التـى اعْـتَـدْتُها
مَـضَتْ لسـوايَ إذْ الشـيبُ حَلّ
وشـأنُ الغـوانى عُـزُوفٌ وصَـدٌّ
إذا لاح فى الرأس شـيبٌ يُطِلّ
ولكنَّ قلبى شــديدُ المِراسِ
وفى النفسِ دفعُ الهـوى لا يكلّ

ودَفْقُ غــرامٍ بكل جـــمــيلٍ
ولـو تـاه عـن كـلِّ عـينٍ وضـلّ
فلم أكـتـرثْ لعـوادي الزمـانِ
ولم أكـــتـــرثْ لبـــلاءٍ أجلّ

(٢)

عــجـــبتُ لأولى ظلالِ النذير
فـهل يطمسُ الشيبُ نورَ الأملْ؟
تَوَلَّى الزمــانُ وجَــافَى المكانُ
ولكنّ قلبى فَـــــتىً لـمْ يَزَلْ
فــإن أَسْـدَلاَ فـوقـهُ سـاترًا
أبى الشـعـر للعُـمْرِ أن يَنْسَدِلْ
وعــادَ إلى بارقـاتِ الحـيـاةِ
لنسجٍ من الوَشْيِ لم يكتـملْ

فــإن تَكُ ربةُ شــعــرى مَــضَتْ

فــإنّى لِهـجْرَانِهَـا مُـحْـتَـمِـلْ

وقلبى استطابَ مراقىِ الخيـالِ

وحَــلَّ بــأقــطــارهــا وارتَــحَــلْ

هدانى لشـيطانِ شـعـرٍ مـريدٍ

يخـــــادعُ فىَّ دواعىِ الأَجَلْ

يَعَضُّ بنابيـه عـضًـا غـريبًـا

له لذّةٌ مــثل بعض القُــبَلْ !

(٣)

وشيطانُ شعرىِ المريدُ الجديدُ

صـغـيـرٌ طمـوحٌ ويهوى الفِـتَنْ

يريدُ ارتيـادَ المحـالَ البـعـيـدَ

لينسجَ من وَهْمِــــهِ كل فنّ

فكيف أُعيرُ إليه جَنَاحًا
قوادمُه قد بَرَاهَا الزَّمن ؟
ومنْ أينَ آتي لهُ بالجديدِ
وكلُّ الذى فى يدى مُرْتَهَنْ ؟
أطوفُ بأرضِ الصِّبا باحثًا
عن الفَرْحِ مثل هَصُورٍ وَهَنْ
فلست أُلاَقِى سوى الصادحاتِ
بأنغام عُمْرٍ مضى بالمِحَنْ
وقد أجدُ الفَرْحَ فى بعضِ رُكْنٍ
خبىءٍ بعيدٍ به قد كَمَنْ
فَأَنْبُشُهُ أستعيدُ الشبابَ
ومرأىَ الروائعِ فوقَ القُنَنْ

(٤)

ولكنّ قـــصـــةَ هذا المســـاءِ
مـــزيجٌ من الواقعِ المُرِّ فـــينا
شـــرابٌ غـــريبٌ به قَـــسْـــوَةٌ
ولَذْعَـــةُ أخـــلاطه لنْ تلينا
ولكنّ رحـــمـــةَ ربِّكَ عندى
تجىءُ لِكُلِّ صـــبـــورٍ يقـــينا
ومـا أنا إلا امـرؤٌ قـد صَبَـرْتُ
فـــأكـــرمنى الله دُنْيَـــا ودينَا
وخـصّنى اللهُ بالشـعرِ كَـيْمَـا
أَحُضَّ عـبـادًا له مُـتّـقـينا
ولستُ أقـــولُ بـأنى غَنِىٌّ
بمالٍ أتى يَبْـــهَـــرُ الناظرينا

ولكنْ لَدَىَّ قناعــــةُ نفسٍ
تُحيلُ الكفافَ طَعَامًا سَمِينَا
وعندى من الحب نبعٌ عـمـيقٌ
يُفَجِّرُ فى القَفْرِ ماءً مَعِينَا

(٥)

وأبدأ يا صحبُ هذى القُصَيْصَةْ
بشرحٍ لمقصدِ شعرِى الجديدْ
فإنى نزلتُ ببحرٍ تهبُّ عليه الرياحُ
فيعلو به الموجُ حتى يميدْ !
ولم أستَطِعْ كبْحَ ريحٍ شرودٍ
لأرسو على شطِّنا فى رشيدْ
ولم أكُ أدرى بأنّ الرياحَ
تَهُبُّ كعفريتِ جنٍّ مريدْ

فأطلقتُ للشعرِ ألحانَهُ

تقاذفُها الموجُ أنَّى يريدْ

فإنْ يهدأْ الموجُ تدنو السطورُ

إلى ما أَلِفْتُمْ بكل قصيد

وإن ثارَ طالَتْ سطورِي وشَطَّتْ

لتبعدَ عن لحنِ كُلِّ نشيدْ

وها أنَذَا قد طويتُ الشراعَ أرومُ النجاةَ

من العاصفِ المُسْتَبِدِّ العنيدْ !



النشيد الأوّل

(٦)

وفارسُ قِصَّتِنَا يا صِحابُ امرأهْ

سأذكرُها ما ذكرتُ النّساءْ

فَلَمْ تَكُ تزهو كما يَزْدَهِينَ

ولم يَكُ فيها بصيصُ رُوَاءْ

أَتَتْ للحياةِ بغير رضاءِ أبيها ولا أمِّها

ولم تَلْقَ من أي فردٍ رضاءْ !

وكانتْ طريدةَ أترابها فى الصَّباحِ

وتقضى النهارَ بأَسْرِ الشّقاءْ

تُحِسُّ نُزوعًا دفينًا بها للبكاءِ

ولكنّها حين يأتى المساءْ

تخبُّ على مَتْنِ أحلامها فى هَنَاءٍ

فترتادُ كلَّ رفيعٍ وناءْ

تُحَطِّم كلَّ قيودِ الزمانِ
وتسمو إلى عالمٍ من بَهَاءْ
وتخلقُ كونًا لها وَحْدَهَا
به من أطَايبِهِ ما تَشَاءْ !

(٧)

وكانت نظيمةُ (هذا اسمُها) من هواةِ الغناءْ
وتهوى التَّرَنُّمَ فى كل آنْ
تحاكى لُحُونَ المؤذِّنِ وَقْتَ الأذانِ
وفى هَدْأَةِ اللَّيل أُغْنيَةَ الكَروَانْ
وكان أبوها يُفَضِّلُ إخفاءَ حُبٍّ أصيلٍ
لِوَقْعِ الغناءِ وسِحْرِ اللّسانْ
ويُصْغِى بِحُجْرَتِهِ صامتًا للصّغيرةِ
فى دَهَشٍ وعظيمِ امتنانْ

وكيف له أن يلومَ الفتاةَ التى

تُشيعُ الحبورَ بكل مكانْ

خُصوصًا إذا عادَ يومًا حزينًا

فصافَحَتْ الأُذْنَ ألحانُ جانْ !

لتغسلَ كلَّ هُمومِ الحياةِ

وتمحُو من النفسِ جَوْرَ الزّمانْ

وما كان يحلمُ أن تستجيبَ السُّنونُ

فيحكِى بألحانِها الخافقانْ !

(٨)

وما إن تخطّتْ نظيمةُ طورَ الطفولةِ حتّى

أُصيبَ أبوها بداءٍ عُضَالْ

وكان من العاملين بِفَتْلِ الحِبالِ

وفى مَصْنَعٍ عندَ سَفْحِ التّلالْ

أجيراً يُدَبّر قوتَ الصّغارِ

ومن ذا يُقَدّر هَمَّ العِيَالْ !

وأَسْرَعَتْ الأمُّ تدعو الجميعَ

إلى ما يُجَنّبُ ذُلّ السؤالْ

فأمّا الذكورُ فقد شاركوا فى الكفاحِ

بأجرٍ زهيدٍ – وليس يُعَدُّ بمالْ !

وأما البناتُ فكن يُجِدْنَ الحياكةَ فى دارِهِنَّ

وفى مأمنٍ من عُيونِ الرّجالْ !

وساءت بوالدِهِمْ حالُهُ وادْلَهَمَّتْ

فباتوا يخافونَ سوءَ المآل

وكانت نظيمةُ تتلو على رَأْسهِ

من الآيِ ما ذاعَ صيتًا بكلّ مجالْ !

(٩)

وأشفقَ أهلُ رشيدَ على أهْلِ بيتِ المريضِ

وقد باتَ في بَرْحِهِ يُحْتَضَرْ

وراعَ الجميعَ رنينٌ بصوتِ نظيمةَ يسمو بِهِ

فوقَ أصواتِ كُلِّ البَشَرْ

وزادتْ زياراتُ بعض الكبارِ

ليستمتعوا برنينٍ نَدَرْ !

وما لبث الشيخُ أن فاضَ روحًا

فغامتْ بعينِ الجميعِ الصُّوَرْ

وقالوا نظيمةُ ماتَ أبوها - فتاةُ التلاوةِ ذاتِ الطّلاوةِ ؟

يا عجبًا لصروفِ القَدَرْ !

ومَرَّتْ ليالى الحدادِ كغيمٍ سَفَتْهُ الرياحُ

فَوَلّى وغابَ بِلالُ المَطَرْ

ولكنّ ديمَةَ حُزْنٍ نظيمةَ هاطلةٌ فى الجفونِ
وتَسْقِى الخدودَ عجيبَ الدُّرَرْ !
ويكسوُ التأسىِّ غناءَ الفتاةِ
فيغدو كصوتِ حَمَامٍ هَدَرْ !

(١٠)

وكنتُ - رفاق المساءِ - صغيرا
حريصًا على الدرسِ حرصًا شديدا
وكنت - كما تذكرون - فقيرا
وإن كان قلبى حكيمًا رشيدا
أرى الشعر مالاً وكَنْزَ النُّهى
غدوتُ به مُؤْمِنًا وسعيدا
أُرَدِّدُ ما قاله الأولونَ
وأضْحَى لَدَىَّ غرامًا فريدا

وكنتُ إذا اللّيلُ حلَّ انْثَنَيْتُ
لأقرأ شعرَ القُدامى وَحِيدًا
وأُحْيِيهِ فى خاطرى مُستعيدا
زمانًا غَدًا طارفًا وتليدا
وأمّا الحوادثُ حولىَ فكانت
صَدَى بَارِحٍ وقديمًا جديدا
تلاشت حدودُ الليالى فكانت
كنهرٍ يسيلُ دوامًا مديدا !

(١١)

وكان لدينا غلامٌ عجيبٌ
يُردّدُ ما لَذَّ من أغنياتْ
نشيطًا مجدًا وعَذْبَ الحديثِ
حريصًا على الصّدقِ جَمَّ الثباتْ

ويحكى الحكاياتِ عَـــمّن تولىَّ

من الأوليـــاءِ ذوى المعـــجـــزاتْ

يُردّدُ أشـــعـــارَهُمْ والوَصَـــايَا

ومـــا قـــد رَوَتْهُ عـيـــونُ الثِّـقـــاتْ

وكنتُ أحـــارُ لســـحـــرِ اللُّحـــونِ

كنبعٍ من النفس صـــافٍ فُـــراتْ

وكنا نلاقى الصـحـــابَ جـمـيـعًـا

بِظَهْـــرِ المدينةِ فى الأمـــســـيـــات

فَـــرُحْتُ أُســـائلُ ذاكَ الغـــلامَ

عن الســـرّ فى هذه الســـانحـــاتْ

فـــقـــال بدهشـــة من يتـــأسّى

لِجَـهْلِىَ : "من عند ست البنات !"

(١٢)

وأدْرَكْتُ أن الفتاةَ نظيمةَ

مصدرُ وَحْيِ الغلامِ الصغيرْ

فتابعتُ أخبارها من بعيدٍ

وما كنت آنئذٍ بالخبيرْ

وكُلُّ الذى جاءنى عندها

نُثَارٌ من القول غيرُ كثيرْ

ومُجْمَلُهُ أنّ تلك الفتاةَ

تخافُ من الدَّهْرِ سوءَ المصيرْ

فليستْ بذاتِ جمالٍ وحُسْنٍ

وليستْ بذاتِ ثراءٍ وفيرْ

وكنا نرى بعض إخْوَتِهَا فى

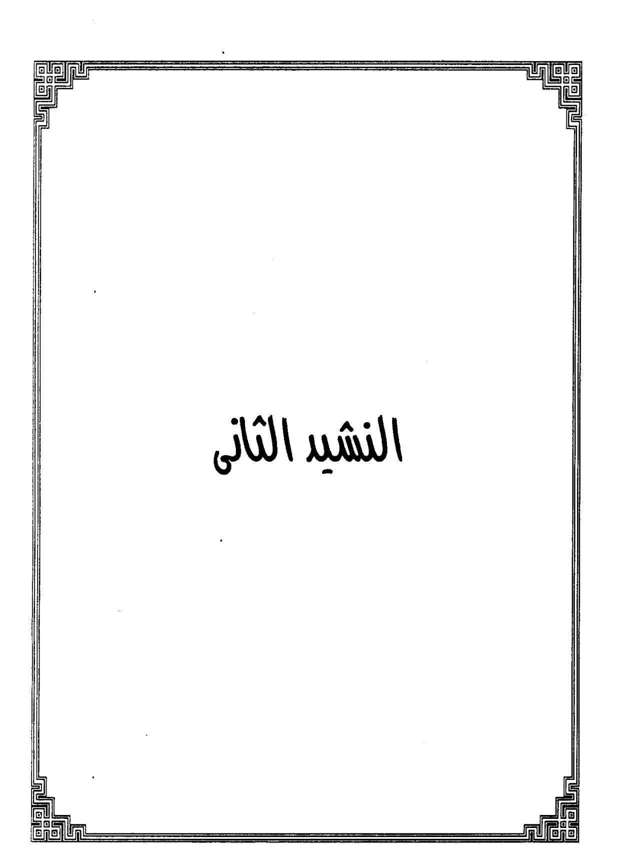
رشـيـدَ بمظهـرِ عُـدْمٍ مـريرْ

يعـانون مـا يَعْـرِفُ الأغنيـاءُ

وليسَ يعـانيـه إلا الفـقـيـرْ !

وكـــانت تَخَطّتْ سنينَ الزواجِ

ولم يَسْـتَـجِبْ للدُّعـاءِ القـديرْ !



النشيد الثانى

تركتُ رشيدَ - كما تذكرونَ -
بُعَيْدَ الطفولةِ للقاهرهْ
وكنتُ كمفتونِ شعرٍ فقيرٍ
أعبُّ مشاهِدَهَا الساحرهْ
أرى في المباني وفي الطُّرقاتِ
مآثرَ فاتنةً آسِرَهْ
وأحيا حياتي بأَرْوِقَةِ النُّورِ
وَسْطَ رُبَا الأَزْهَرِ الزّاهِرَهْ
وألتمسُ العِلْمَ كُلَّ صَبَاحٍ
وتحتَ قناديلِها السّاهرهْ
أرومُ شبابَ الزَّمانِ القَديمِ
وأنشدُ أيامَهُ الغابِرَهْ

أرى فيـه مـعنى الحـيـاةِ إذا مـا
أُتيحَ انطلاقُ الرُّؤَى الغـــامِـــرهْ
فـعـدتُ إلى الشّــعـرِ والوَحْيِ فى
كلّ ركنٍ بقـــاهرتى الشـــاعِـــرَهْ !

(١٤)

نسـينا نظيـمةَ يا صحبُ سَهْوًا
وذلك فى السَّــرْدِ عــيبٌ وهَفْــوَهْ
ولكننـى الآنَ راوٍ عــــجــــوزٌ
يحــاولُ أن يغـفـرَ الناسُ سَـهْـوَهْ
وأمـــا الحــــديثُ عن الآخـــرينَ
فــذنبٌ وأرجــو من الله عَــفْــوَهْ
كــعَــثْــرَةِ أقــدامِنا حين نَكْبُــو
وننهضُ ناجينَ من كُلِّ كَــبْـــوَهْ

ومـا الذكـرياتُ سـوى تيـهِ كُلِّ

عـجـوزٍ وأعـمقِ جُبٍّ وهُوَّهْ

هـى الوهـمُ يَرْسُمُ فـى كُـلِّ حِينٍ

من القَـفْـرِ خِـصْـبًا وعِـزّاً وثَرْوَهْ

يُشَـتّتُ فـى الذهن ألحـانَهُ

وينبـو بـأفكاره كل نَبْـوَهْ

وها أنَذَا فى غِـمَـارِ الحـديثِ

أعـودُ إلى مَـوْجِ بَحْـرِى بقُـوَّهْ !

(١٥)

أتانى صـديقى المُغَنىِّ الصـغيـرُ

وقـد صـار شـابًا ليطلبَ قَـرْضَـا

ولم أكُ أمْلِكُ مـالاً وفـيـراً

ولكنْ رأيت المعـونةَ فَـرْضَـا

وكـــان بـه مـــثلُ هَمٍّ دفينٍ
يكادُ بأن يَطْرَحَ الخِلَّ أَرْضَـــا
وأَلْحَـحْتُ حـتى يَشي بالهـمـومِ
فــأبدى التَّـرَدُّدَ حـينًا وأفـضىَ
وقــال لقـد جـاء بيتَ الفـتـاةِ
خطيبُ ويملكُ حــقـلاً ورَوْضَـا
ويعـرضُ مَـهْـرًا كـبـيـرًا ودارًا
ويُغْـرِي النواظرَ طولاً وعَـرْضَـا
وكـان بَشُـوشًـا جـمـيلَ المُحَـيّـا
فلم تَمْلِكْ البنتُ للكَهْلِ رَفْـضَـا
وأَمَّــا الفـؤادُ فلم يُبْـدِ حُـبّـاً
وأمـا اللسـانُ فلم يُبْـد بُغْـضـا

وَلَمْ أَرَ فـيـمـا حكَىَ عن نظيـمـةً

أَىَّ مـــاسٍ تهـــزُّ الصـــدورْ !

فـأىُّ زفافٍ لمن تتـخطى الشبـابَ

ببلدتنا مــصـــدرٌ للســـرورْ !

وحـتى إذا كـان كَـهْـلاً تَصَـابَى

فـــفى الحُبِّ بعثٌ له أو نُشُـــورْ !

ومـا دام فى الكيسِ مـالٌ وفـيـرٌ

فكـأسُ الـغـــــرامِ بمـالٍ تـدورْ

وكنتُ أظنُّ الزواجَ بشـائرَ سـعْـدٍ

وليسَ بـه مـــأثمٌ أو شـــرورْ !

وسـاءلتُ خِلِىّ الصـغـيـرَ فكيفَ

تَـأَتَّى لحـــزنٍ بـه أن يثـــورْ ؟

فــقــال أمَــا كنت تعلمُ حــقًــا

بأنّ الحــيــاة مــتــاعُ الغــرور ؟

فـهـلاّ استـمـعتَ لما سـوف أحكى

وهلاّ غـفَـرْتَ مناحى القـصـورْ ؟

(١٧)

وقال صديقى لقد كان أيوبُ زوجًا عجيبًا

يحبُّ الحياةَ ويرجو من الله خيرَ النّماءْ

وكانت له زوجةٌ قد أَتَتْ بالبنينِ

فكانَ شكورًا لفضلِ السماءْ

وكان بنوهُ دؤوبينِ فى الحَقْلِ لا يعرفونَ الكَلاَلَةَ

وَهْوَ بِهِمْ يستزيدُ العَطَاءْ

وأما جميلةُ أُمُّ البنينِ

فكانتْ تُفَاخِرُ بالحُسْنِ كُلَّ النِّساءْ

وتَقْضي الصباحَ تؤكّدُ ما زَانَها من فُنُونٍ
وتأتى بما لم يَكُنْ من بَهَاءْ
وكانت تُحسُّ بأن الزواجَ بتلك 'النظيمهْ' -
بلاءُ من الله أيُّ بلاءْ
(وليس يُمَثّلُ إلاّ الفَنَاءْ !)
ولكنّها مثل بعضِ النّساءِ تكتَّمَتْ الغلَّ كالأقْوِيَاءْ
ورَاحَتْ إلى الجنِّ تشكو الزمانَ
وتطلبُ ثَأْرًا لها فى الخَفَاءْ !

(١٨)

وأصْغَى حقيرٌ من الجنِّ للوَسْوَسَاتِ بوَكْرِهِ
وكان التَّضَرُّعُ للجنِّ فُرْصَةَ عُمْرِهْ !
فقد كان يَبْغِى التَّقَرُّبَ زُلفى لإبليسَ حتّى
يكافئه أو ليعلوُ بِقَدْرِهْ

فقال لربِّ القَبيلِ الأثيمِ سأُنْزِلُ بالزَّوْجِ
كُلَّ بلاءٍ يحطّم إيمانَهُ أو يجئُ بِقَبْرِهْ
فَنَكْسبهُ بين شَرِّ البَرَايَا
إذا ضاقَ ذَرْعًا ونَاءَ بِدَهْرِهْ
هُوَ الآن يَشْكُرُ خالقَهُ ، والملائكُ
فى كُلِّ صُقْعٍ تقولُ بِشُكْرِهْ
ولكنّنى سوفَ أُلْقى عليهِ بداءٍ غريبٍ
وليسَ يُعَالِجُهُ غيرُ صَبْرِهْ
وما ذاكَ إلا نُضُوبُ المَعِينِ
وجدبُ الرياضِ نذيرًا بِفَقْرِهْ
سيعرفُ ذُلَّ السؤالِ ، وهَمُّ الدُّيونِ
يُنَغِّصُهُ فى خَفَاهُ وجَهْرِهْ !

وكان الملاكُ المكلَّفُ ذاكَ المَساءَ بدورِ الرِّقَابَةِ

يسمعُ هذا الحوارَ الأثيمْ

فأُهْرِعَ من فَوْرِهِ للّذى فَوْقَهُ كىْ

يَرىَ ما عَسَاهُ يكونُ إذَا صَحَّ عَزْمُ الرَّجِيمْ

وكان الذى فَوْقَهُ باسمًا

يسبّح لله ربِّ الوجودِ الكريمْ

فَأَصْغَى وقال ببسمتِهِ لا تَخَفْ !

هل اجْتَزْتَ أجوازَ هذا الفَضاءِ لتُبْلِغَني أَمْرَ هذا الزَّنِيمْ ؟

ألا تَعْلَمَنَّ بأن الذى يَنْتَويه الحقيرُ

ابتلاءٌ لأيُّوبَ من عنْدِ رَبٍّ عليمْ ؟

فإنْ صَبَرَ العَبْدُ والْتَزَمَ الشُّكْرَ كان الأثيرَ

بِعَفْوِ الغفورِ الحَلِيمْ

وأمّا إذا ما تَمَرَّدَ أو فَقَدَ الصَّبْرَ
فالأمْرُ فى يَدِ أَسْمَى حَكِيمْ
فَعُدْ لمكانِكَ واصْدَعْ بأَمْرِكْ !
فليسَ يجادلُ فى أَمْرِهِ غيرُ غِرٍّ غَشِيمْ !

(٢٠)

وقال الملاكُ حنانَيْكَ لمْ أَعْصِ أَمْرًا
ولكنّنى دَهِشٌ لا أَبينْ !
وأَقْصِدُ أنّ ابن آدمَ سوف يُعانى
بِوَحْشَتِهِ ما له من مُعِينْ
جميلةُ حَادَتْ خُطَاهَا وحَالَفَتْ العَاصِيَاتِ
وأيوبُ فى يَدِها مُسْتَكِينْ
وكيفَ به لا يُحِسُّ الخِدَاعَ
وكيفَ يكونُ من الغَافِلِينْ ؟

فهلاّ سَمَحْتَ بأنْ أُرْشِدَ الغِرَّ لِلْحَقِّ

حتى يجاوزَ جَدْبَ السنينْ ؟

وأعرفُ أنَّ الملاكَ المُطيعَ

لهُ عملٌ فى مَراقِى اليَقينْ !

وقال الملاكُ الكبيرُ عليكَ بِزَوْجَةِ أيوبَ

(أعنى نظيمةَ) فاذهبْ فأنتَ عليها أمينْ

إذا انحطّ كلُّ البرايَا وذَلّ بِظُلْمِ الحياةِ العزيزُ

فإنّ قَنَاةَ نظيمةَ ليستْ تلينْ !

(٢١)

وعاد الملاكُ ليشهدَ ما حَزَّ فى نَفْسِهِ أنْ يراهُ

نضوبَ المياهِ بأملاكِ صاحِبِنا أَجْمَعَا !

وما لَبِثَ الحَقْلُ أن صار قَفْرًا

وكلُّ الرياضِ غَدَتْ بَلْقَعَا

وحارَ الملاكُ لسُرْعَةِ ما قد أتَاهُ الحَقِيرُ

وشَرُّ البَلِيَّةِ ما أَسْرَعَا !

وقال لأبْدَأْ بتثبيتِ قلبِ نظيمةَ

لا يَجْمُلُ اليومَ أنْ تَجْزَعَا !

وها هو يأتى بِحُلْمِ انْحسارِ البلاءِ كأَصْدَاءِ هَمْسٍ

ويَرْجُو من الله أن تَسْمَعَا

وظَلَّ يُسَبِّحُ للحقِّ حتى قُبَيْلَ الشروقِ

وأَلْوَانُهُ فى السَّمَا لُمَّعَا

وماَجَتْ بنفسِ نظيمةَ ألحانُ ذاكَ الملاكِ

فكادتْ بها العينُ أن تَدْمَعَا

وقامت تُلَمْلِمُ أشتاتَ حُلْمِ الملاكِ

وما نَبَذَ الذهنُ من خَلْطِهِ أو وَعَى !

(٢٢)

ورَدَّدَ أهلُ رشيدَ نُثَّارَ الحديثِ عن الجَدْبِ فى

أَرْضِ أيوبَ بَعْدَ الجَفَافِ وسَمْتِ الخَرَابْ

وقالوا تُرى قَارَفَ المُوبِقَاتِ

وما يستحقُّ صنُنُوفَ العَذَابْ ؟

وإلا فكيفَ غَدَا ماؤهُ

شَحِيحًا وكلُّ بَريقٍ سَرَابْ ؟

لقد كان فى الجَهْرِ شهمًا شريفًا

نُسَمِّيهِ بالحقّ زَيْنَ الشَّبابْ

فهل ثَمَّ سرٌّ ولَسْنَا بِهِ عارفينَ

أحالَ الرياضَ قفارًا يَبَابْ ؟

وكدتُ أسائلُ مُلْهِمَةَ الشّعْرِ والأُغْنياتِ

عن الحقّ فيما عَنِ العَيْنِ غابْ

فَأَنْبتَ شَوْكًا مكانَ الزُّهورِ
لِيَسْقيهِ مُرًّا بديلَ الرُّضَابْ
ولم أَكُ أدركتُ طَوْرَ الرِّجَالِ
فَلَمْ أَرَ فى مَسْلَكِي ما يُعابْ !

(٢٣)

وَقَفْتُ لدَىَ دارِ أيوبَ وَحْدِي طويلاً
كأنّى أحادثُ بعضَ الدِّمِنْ
وأشهدُ أطلالَ عزٍّ تليدٍ
وأمجادَ عُمْرٍ مَحَاهَا الزَّمَنْ
أُسَرِّحُ طَرْفى بِعرْشٍ تهاوىَ
وهَبَّتْ عليه رِيَاحُ المِحَنْ
وجَاشَ فؤادِى بِلَحْنٍ حزينٍ
وكدتُ لِوَطْأَتِهِ أنْ أُجَنّ

وبعد طَويلِ حنينٍ لصوتِ الفَتَاةِ
ويا طولَ ما كنتُ للنَّغَماتِ أَحِنّ
تحوّل وَجْهي عن الدَّارِ نَحْوَ رمالِ رشيدَ
أحاولُ تعزيةَ النَّفْسِ فى صَمْتِها عَنْ حَزَنْ
وكانَ كذلكَ دَأْبُ الصِّبا
وكنتُ شغوفًا بهذا السَّنَنْ
فكمْ ساخَ فى مَوْجِ تلْكَ الرِّمَالِ
قَوِيٌّ يَدِبُّ وشيخٌ وَهَنْ !

(٢٤)

ويعلمُ ربّى مدَىَ ما تَأَلَّمْتُ فى وقفتى
أشاهدُ ما كادَ دَهْرِىَ أن يَخْسِفَهْ
كأحلامِ شِعْرٍ غَذَتْهَا الفَتَاةُ
فباتَتْ تَئِنُّ بأيدِى الغَدِ المُجْحِفَهْ

وما قد حَفِظْتُ بألحانها

فكانَ لى العِلْمَ والمَعْرِفَهْ

تطوفُ بذهنِى مشاعرُ وَهْمٍ مريرٍ

وتُلقى بأسئلةٍ مُلْحِفَهْ

وتبعثُ شيطانَ شِعْرٍ جديدٍ

أَبَى عَقْلِىَ الجادُّ أن يَصرِفَهْ

ليوحىَ بالسوءِ – سوءِ المآلِ –

فأقوالُه كلها مُرْجِفَهْ

ويُسرفُ فى وَصْفِ ما كابَدُوهُ

وكلُّ تصاويرِهِ مُسْرِفَهْ

وقَبْلَ انطلاقِى لمحتُ ابن أيوبَ (أكبرهم) قادمًا

ويحملُ فى يَدِهِ أَرْغِفَهْ !

تبدّى الشحوبُ على وَجْهِهِ
ومَحْلُ اللَّيالي بجسمٍ نَحيلْ
وعينٌ بَدَتْ كالزجاجِ اليَبِيس
خَلَتْ من بَريقِ الضّياءِ الأصيلْ
بِمحْجَرِهَا ثَبَتَتْ في بُرُودٍ
يُجمّدُ أيَّ دُمُوعٍ تَسيلْ !
دَنَوْتُ إليهِ وقَارَبْتُهُ
فأدركتُ فيه سِماتَ العَليلْ
ولم يتكلمْ ولكنّهُ فَتَحَ البابَ ثم اخْتفَى
وفي رِعدةِ اليد ذُلُّ الذّليلْ
ودونَ انتظارٍ وجدتُ نظيمةَ باسمةً في حياءٍ
لدىَ البابِ تدعو 'شُوَيْعِرَهَا' للدُّخولْ !

ولم أَتَرَدَّدْ لأنّ المكانَ يكادُ يكونُ مكانِى
سمعتُ به كُلَّ لَحْنٍ جميلْ
وفى رُكنِ 'منظرة' البيتِ كان الهزيلُ
أجل ! كانَ أيوبُ يقبعُ مثلَ الحَميلْ !

(٢٦)

وأَوْقَـفْتُ مـجرىَ الحـديثِ لأسـألَ عَـمَّـا
جَـرَى لجـمـيلةَ بَعْـدَ زَوَالِ النعـيمْ
وكـيفَ تَلَقَّتْ مـصـيـراً رَجَـتْـهُ لأيّوبَ
حـتى يُسَـاقَ بِهِ لِعـذابٍ أليم ؟
وهل شكَرَتْ حينَ حَلَّ الخـرابُ جُـهُـوداً
لإِبْليسَ يَرْقَى بهـا فى مَـرَاقِى الجَـحـيمْ
وكـيفَ تَحَـمَّلَتْ الضَّنْكَ وَهْىَ التى مـا
رَأَتْ عند أيـوبَ إلا الـهَنَـاءَ المُقـيـمْ

فـقـالَ بـحـزنٍ جـمـيلةُ غـانيـةُ كـالزمـان

وهـل لـلزمـــان عـــهـــودٌ تـدومْ ؟

لقد كانت الصَّفْوَ عند صَفَاءِ السَّمـاءِ

وحلَّ التلبُّـــدُ عند حُلولِ الغُـــيـــومْ

دَعَتْـهُ لتطليقِـهَا فاسـتجـابَ مُطِيعًا

كمن كـان يَفْصِدُ عِرْقَ الزمـانِ القديمْ

تألّم ســاعَــتَــهـا ثم أجْــهَشَ لكنْ

تَحَـمّلَ توديعَــهـا باصطبـارِ الحَليمْ



النشيد الثالث

(٢٧)

تَأَمَّلْتُ مــا قَصَّ خِلىٌّ وقُلْتُ
وهَلْ ذَاكَ حَــتْمٌ بكلِّ زمــانْ
هل الغَـدْرُ من طَبْعِ كل البَـرأَيا
أم الغَـدْرُ يَفْـرِضُـهُ الحَـدَثَانْ
وقلتُ لنفـسى فكيفَ استَطَابَتْ
جـمـيلةُ بالأمْسِ هَجْـرَ المكانْ
وكـيفَ تخلَّتْ عن الأوْفـيـاءِ
وهم يَتَسـاقَـوْنَ كـأسَ الهَـوَانْ
وكنتُ تخطَّيْتُ طَوْرَ الشَّـبـابِ
ومــازِلْتُ غِــرًّا بَرِئَ الجَنَان
وكـان صـديقى يحـادثُ قَلْبًـا
رَضِـيـعًـا غَذَاهُ لَبـانُ الحَنَانْ

فـهلْ يُقْطَمُ المرءُ حينَ يُفـاجِـئُـهُ
الشَّــرُّ بالرُّمْحِ حَــادّ السِّنَانِ
لِطَعْنَةِ من يتــوقّعُ حَــرْبًا
ولم تَكُ لى خِـبْــرَةٌ بالطِّعَــانْ

(٢٨)

تساءلتُ في خاطرى عن جَميلهْ
وقد ذاَعَ عنها جميلُ السَّجَايَا
وكنتُ سَمِـعْتُ بها ثم شاهدتُها
ذاتَ يومٍ بِفَــجْــرِ صِــبَــايَا
بوجــهٍ مليحٍ وخُـضْـرِ عُـيُـونٍ
وبَسْـمـةِ سِـحْـرٍ غَـذَتْهـا الثّنايا
تَتِـيــهُ بخـصْـرٍ دَقـيقٍ نَحـيلٍ
وقَــدٍّ يميسُ بمـا فــى الحَنَايَا

ألم يُعْطِهـا الدهرُ كلَّ الذى
يَضِنُّ به بين تلك البـــرايا
كساها الجَمالَ وفَرْطَ الفُتُونِ
عـواريَّ يَمْنَحُـهـا للصَّـبـايا
فـمـا سَـمِعَتْ قـولَ أيِّ حكيمٍ
يطالبُـهـا باتّبـاعِ الوَصَـايَا
ولكنّهـا كَـفَـرتْ كـالكَنُود
وأنْكَرَتْ اليــومَ كُلَّ العَطَايَا !

(٢٩)

وعُــدْتُ إلى الخِلِّ أســأله أن يقصَّ
حديثَ نظيمةَ عَمَّا جرىَ
فـأطرقَ في شَـجَنٍ سـاعـةً ثم قـالَ
سَيُذْهِبُ هذا الحديثُ الكَرَى

إذ انْطَلَقَتْ تتـغنّى بعـدلِ السـمـاء

وحِكْمَتِها فى شـؤونِ الورَى

وفى الحـالِ قَـصَّتْ عَلَىَّ المنامَ الذى

رَأَتْ فيـهِ كـيدًا لَهَـا دُبِّرا

كـأنّ نظيـمـةَ قـد سَـمِعَتْ للمـلائكِ

بالأُذْنِ فى خَطَراتِ السُّرىَ

فكانت لهـا الروحُ أُذْنًا سَـمُـوعًـا

وكـانَ لهـا القلبُ عـينًا ترىَ

وبعـدَ قليلٍ أتت بالرَّبَابِ الجـمـيلِ

وغَنَّتْ لنا اللَّحْنَ مُسْتَبْشِرَا

سـأُنْشِـدُ بين يَدَيْكَ لَحـونًا أَتَتْـهـا

لتـدعُو المعذّبَ أن يَصْبِرَا :



حديث الأمل

(٣٠)

(أ)

تســاءلْتَ يا طَالِبًـا لليَـقينْ

عن السِّــرّ فى دَوَرَاتِ السِّنينْ

وعَنْ غِـيَـرِ الدَّهْر حين يُوَلّىّ

وعــمـا يُصـيبُ به المؤمنينْ

(ب)

زَعَـمْتَ لنفـسكَ عـقـلاً فـريدا

وذِهْنًا تُريدُ لـه أن يَسُــودا

وفِكْرًا تَملَّكَ هـذا الوجـــودَ

وتَرْجُــو له جَـاهِدًا أن يزيدا

(جـ)

فَـهَـلاّ تَسَـاءَلْتَ عند الغَـسَقْ

عن النورِ فى الشرق كيف انْبَثَقْ
وعن حُمْرَةٍ فى طُيوفِ الأصيلِ
ولَوْنِ البَنَفْسَجِ عند الشَّفَقْ

(د)

وهَلاّ تَسَاءَلْتَ عن كُلِّ نَسْمَهْ
تَهُبُّ بِصَيْفٍ حَرُورٍ كَبَسْمَهْ
تُصَوِّرُ فى النَّفْسِ ما رُمْتَهُ
وتَرْسُمُ فى القَلْبَ ما شِئْتَ رَسْمَهْ !

(٣١)

(هـ)

وهلاّ تَسَاءَلْتَ عن شَادِيَاتْ
بَكَرْنَ بِصُبْحِ الوَرَىَ غَادِيَاتْ
غَدَوْنَ خِمَاصًا وعُدْنَ بِطَانًا

وهُنَّ بِجَـوْ السَّـمـاَ شَـاكِـراَتْ

(و)

وهلاّ تَسـاءَلْتَ عن مَـاءِ بَحْـرٍ
تَغَـذَّىَ من العَـذْبِ فى كُلِّ نَهْـرِ
ولكنّه مــثل مِلْحٍ أُجـاجٍ
تــزيـدُ مَــرَارَتُه كُـلَّ مُـرِّ

(ز)

تَـأَمَّـلْ ظَلاَمًـــا بِلَيْلٍ طَـويلْ
ولَيْسَ بِهِ غـــيــرُ نَجْمٍ عليلْ
ألا تسمُع الآنَ فى الصَّمْتِ صَوْتًا
يَشـى بِصَـبَـاحٍ بهِـيجٍ جَـمـيلْ

(ج)

فهاأنذاَ أسْمَعُ الصّوتَ هَمْسَا
يكادُ بأنْ يَلْمَسَ القَلْبَ لَمْسَا
يُؤَكّدُ أنّ الصباحَ قَريبْ
وأنّ سَوادَ الدُّجَى ليسَ رَمْسَا

(٣٢)

وأحسستُ فى كُلِّ نبضٍ بقلبى
كأنّى أنا صاحبُ الكلماتْ
وقلتُ نظيمةُ ربةُ شِعْرٍ
لها منطقٌ دافقُ النَّغَمَاتْ
يثيرُ الخيالَ ويغذوُ الجَمَالَ
ويبعثُ بالبِشْرِ والبَسَمَاتْ

وينفى الهُـمُـومَ بإيمانِ رُوحٍ

تُبَـدّدُ أنوارُها الظُّلُمَـاتْ

وأَحْسَسْتُ أن نظيمةَ كانتْ

تَعُدُّ الوفاءَ من الحُرُمَاتْ

فَأَحْرُفُهَا صادقاتُ التغنّى

بحبلٍ من الله معتصماتْ

ولم تَبْغِ سوءًا بأى عَدُوٍّ

وما بَدَتْ اليومَ منتقماتْ

ولم تَكُ إلا دعاءً كريمًا

من القلب يستنزل الرحمات

(٣٣)

ولكنْ تُرى هلْ أشارتْ بطرفٍ خفىٍّ

إلى من يسائلُ عن عَدْلِ ربٍّ رفيعْ ؟

أكــانتْ نظيـمــةُ أَمْ كــانَ أيوبُ يومًــا
يَظُنُّ الظُّنونَ بِرَبٍّ الوجــودِ البَــديعْ ؟
وقلتُ لنفــسى لأَطْرحْ عليــهِ السُّــؤَالَ
كــأنّى أســائلُ نَفْسِىَ مـثل الجـمـيعْ !
ويا عـجَبًا ! قـالَ أيوبُ سبـحـانَ رَبّى !
وكــيفَ أشكُّ بربٍّ حكيمٍ ســمــيعْ ؟
وحـــاولَ أن يَنْهضَ الآنَ منْ ركْنهِ كىْ
يُعَــبِّـرَ عـمّـا أتَى قَلْبَـهُ من خُـشُـوعْ
فَـخَــانَتْـهُ أَقْـدَامُــهُ فــجــأةً ثُم قــالَ
وفى العَيْنِ تَبْـرُقُ كـالدُّرّ بعضُ الدُّمـوعْ
لَقَــدْ بِعْتُ يا صَــاحِ كُلَّ الذى فى يَدىِ
ولم يَبْقَ مــا قـد أُقَـايَضُ أو مــا أبيعْ !
ولكنّنى مـؤمنٌ بالنَّجَــاةِ ولو جُـعْتُ دَهْرًا

ومــاذا يُضِــيــرُ الفَـتَـى أن يَجُــوعْ ؟

(٣٤)

وقال لقد كنتَ أَوَّلَ من زَارَنَا

مِن الصَّحْبِ منذُ ازْوِرَارِ الزَّمَانِ العَجيبْ !

فأكثرُ ما يحزنُ النَّفْسَ هجرُ الأحبةِ أو قُلْ

جُحُودُ الذى كان عندكَ يومًا حبيبْ !

تُرى أينَ وَلَّى الصحابُ وكيف لَوىَ الناسُ

أوْجُهَهُمْ بل وحتى القَرِيبْ ؟!

لقد كان مَنْزِلُنَا نُزْهةً للعُيونِ

ويرتادُها الكُلُّ حتّى الغَرِيبْ !

وها أنتَ تأتي وأنتَ الصَّبِيُّ

فَتَكْسرُ طَوْقَ جَفَاءٍ رهيبْ

ولولا نظيمةُ ما زُرْتَنَا – أو لعلّى أقولُ –

إذا لَمْ تكُنْ مُغْرَمًا بالغناءِ دؤُوبْ !
ولستُ أجادلُ فى أنّ حُزْنًا أصابَكَ
مما سمعتَ عن البُؤْسِ فى بيتِنا والنَّحيبْ
ولكنْ تأكدْ – صديقى الصغيرَ – بأنّا هُنا مؤمنون
وإيمانُنا صادقٌ لا يَخيبْ !

(٣٥)

وَمَرَّتْ لَيالىٍ وأيامُ ذاك الشتاءِ
بلا موقدٍ يَصْطَلُونَ بِهِ أو غذَاءْ
سوى ما يَجُودُ به الصالحونَ
على فَقْرِهِمْ (لا نَدَىَ الأغْنياءْ)
وعند حُلولِ الربيعِ (وكُنّا بآخرِ شَهْرِ الصِّيامِ)
رأيتُ نظيمةَ فى الجُرْنِ وَسْطَ الفِنَاءْ
وكنتُ إذا ما انتهى الدرسُ أَقْصِدُ جُرْنَ الحبوبِ

بشرقِ المدينةِ عند الخلاءْ

لأجمعَ ما كان من كَسْرِ أُرْزٍ

لإطعامِ أفراخِنَا فى المَسَاءْ

عجبتُ لمرأىَ نظيمةَ فى الجُرْنِ وَهْىَ تَميلُ

على بُقْعَةٍ قد كساهَا الهَبَاءْ

تُقَلِّبُ فيها كَمَنْ يَبْتَغِى الأُرْزَ مِثْلِى

وتُقْعِى مُحَدِّقَةً فى الهَوَاءْ !

تَأَمَّلْتُ ما نَبَشَتْ باليَدَيْن فَلَمْ أَرَ شيئًا

جَدِيرًا بِنَبْشِ الثَّرى فى عَنَاءْ !

(٣٦)

تَسمَّرْتُ فى مَوْقِفِى جَامِدًا

وقد أذهبَ النُّطْقَ عنِّى العجبْ

وكاد الفضولُ يحثّ لسانى

لأســألَهــا مــا يكونُ الطلبْ
ولكننى اخـتـرتُ بعضَ التَّمـهُّلِ
بالصّبـرِ تَقْـضِى حُـدُودُ الأدبْ
وحـين التـــــفتُّ إلى الأُفْـقِ
أدركتُ أن الغُــروبَ اقــتــربْ
وأنّ السـحـاباتِ تجرى سراعًا
وتُخْـفى رياحًـا خِـفَـافًـا تَهُبّ
وخِـفْتُ الغُـبـارَ ربيبَ العِـثـارِ
إذا عَـصَـفَتْ أىّ عَـصْفٍ تَربْ
وكـانت نظيـمــةُ ثابتــةً لاتريمُ
كمن يسـأل الأرض عمّا احتجبْ
فناديتــهــا خَــوْفَ تلكَ الرياحِ
كطفلٍ كـفـاهُ المسـاءُ اللَّعِبْ !

(٣٧)

فـقـامت نظيـمـةُ ذاهلةً في عَنَاءٍ

كـمن يتـهـاوَىَ لِفَـرْط اللَّغَبْ

نظرتُ إليـهـا وذَكَّـرْتُهَـا بالغـروبِ

كَـأنّي أحـادثُ ضَـوْءًا غَـرَبْ

كـسـاها الشـحـوبُ وحـتّى الرداءُ

بدا حـائلَ اللَّونِ كـالمكتـئبْ

براها النحـولُ وأَخْلَقَ جِلْبَـابَهـا

فكانتْ كـمـثلِ الخَـيالِ انتـصبْ

وكـان بعينِ نظيـمـةَ لمعٌ غـريبٌ

كـمن خَـشِيَ الغَـدَ المُرْتَقَبْ

فَـأَلْحَـحْتُ حتى تُحَدِّثَ عـمّا بها

وتكشفَ عـمـا عـسـاهُ السـببْ

فـقـالتْ بصـوتٍ خـفـيضٍ جـمـيلٍ

لقـــد زارنى حُلُمٌ مُـــغْـــتـــصِبْ

وحَـــــرَّضَنى أن أناجى التـــراب

لأشـــهـــد فـــيـــه هناءً سَـــرَبْ



حديث التراب

(٣٨)

وقالتْ سمعتُ بهذا الثَّرىَ

دبيباً يَطنُّ طنينَ الذُّبابْ

وما لَبثَ الصَّوْتُ أن صارَ لَفْظًا

يموجُ بألحانِهِ فى اصْطِخَابْ

فَأطْرَقْتُ مُصْغيةً للهَدير

أرومُ المَعَانىَ منْ كُلِّ بَابْ

وكانَ حديثُ الثَّرىَ باكيًا ضاحكًا

فقلتُ لَعَلّ بِأُذْنى نَشيشَ اضطرابْ

ولكنّ كُلَّ الحروفِ استبانَتْ

فهلاّ عَلِمْتَ حديثَ التُّرابْ ؟

يقولُ لقد كنتُ لحمًا وعَظْمًا

جمالاً فريدًا وزَهْرَ شبابْ

وكنتُ أتيهُ على الأرْضِ جَمَّ الثَّباتِ
وَلَمْ أَرَ فوقَ البَسيطَةِ شيئًا يُهابْ
فخوراً ببأسِ الفُتُوَّةِ فى الساعِدَيْنِ
أكادُ لِزَهْوِى أَمَسُّ السَّحابْ

(٣٩)

وقال الترابُ لقد كنتُ غرّاً
وأزهوُ بِوَجْهٍ صَبُوحٍ جَميلْ
بِجِسْمى تَضِجُّ الدِّمَا فى العُروقِ
بِفَوْرَةِ من وَثِقَ الدَّهْرَ ألا يَحُولْ
وأَبْغِى المَرَاحَ كأنّى سأَخْرِقُ أَرْضى
منَ الفَرْحِ لستُ أرى المستحيلْ
أُحِسُّ بِعُمْرى مَدِيداً طَلِيقًا
كَدَرْبٍ إلى أَبَدِ الآبدينَ الطَّويلْ

على جانبيه غصونٌ تَدَلَّتْ
وأزهارُه ليسَ تَدْرِى الذُّبولْ
به الدَّوْحُ تعلوُ ذؤاباتُهُ
تُشَارِكُها باسقاتُ النَّخيلْ
وكنتُ أُحسُّ بأنّى بآفاقِ هذا الفَضَاءِ
كَنَجْمٍ أضاءَ ولَيْسَ يَخَافُ الأفولْ
وكيفَ أخافُ الأُفُولَ وبى عُنْفُوَانٌ
يُثَبِّتُنى فى السَّمَا لا أَمِيلْ !

(٤٠)

وذاتَ مساءٍ وبَرْدُ الشِّتَا نافذٌ
للعِظَامِ ظَلُومٌ غَشُومْ
لَمَحْتُ تكاثُرَ سُحْبَ السَّماءِ
وطَمْسَ بَوَارِقِ عُلْيَا النُّجُومْ

وغَامَتْ بِقَلْبِى رُؤَى كُلِّ شَىْءٍ
كَمَنْ غَشِىَ العَيْنَ مِنْهُ السَّدِيمْ
وخِلْتُ كأنّ بِنَفْسِى حَسِيسًا
كَصَوْتِ احتراقِ حُطامٍ رَميمْ
تعجبتُ من وَقْدِ نارٍ بِبَرْدِ الشّتاءِ
ولا تَذَرُ الآنَ إلاّ الهَشِيمْ
وسَرْعَانَ ما صَاحَ فى دَاخلِى صائحٌ
برنَّةِ حُبٍّ و وُدٍّ حميمْ
يقول بأنى أعُودُ تُرابًا
ولم يَبْقَ فى فُسْحَةِ العُمْرِ إلا الصَّرِيمْ
ولكنّ هذا التُّرابَ يعودُ فَيَحْيَا
بِيَوْمٍ عَظِيمٍ لبعثٍ مُقيم !

وتاهتْ عيونُ نظيمةَ فى الأُفْقِ 'يا عجباً'

'كيفَ جاءَ الجُنُونُ قرينَ العَيَاءْ !'

فمن ذا يصدقُ أنّ نظيمةَ

ذاتَ الحجَا وعَظِيمِ الذّكاءْ

تُنَاجِى التُّرابَ وتَسْتَنْطِقُ القفْرَ

حينَ يدورُ الزَّمَانُ ويأتى البَلاَءْ

وكيفَ أتَى فى المنامِ المَلاَكُ

فجمّد فيها دَبيبَ الرَّجَاءْ ؟

وقلتُ لعلّ المُنَادِىَ عفريتُ جِنٍّ

يُدَبِّرُ للشَّرِّ فى ليلةٍ من عَمَاءْ !

فَسَاءَلْتُها عن حديثِ المنامِ

وفى القلبِ ما يعرف الأتقياءْ

فقالت ملاكٌ يُنَبّئنى بالمزيدِ

من الهَمِّ والغَمِّ في بعض داءْ
كأنّ المنام يُخَيِّرنى بين راحةِ يوم الفناءِ
وآلامِ طولِ البقاءْ !

(٤٢)

وقال الملاكُ قد اجتازَ أيوبُ
محْنَتَهُ باقتدارٍ وصَبْرِ
وصَبْرَ ابن آدمَ مربطُ إيمانِه
بالإلهِ وآيةُ شُكْرِ
يُحَدِّثُ بالصَّبْرِ عن ثِقَةٍ بالإلهِ
بِكُلِّ ثَبَاتٍ وفَخْرِ
وكُنْتِ له يا نظيمةُ كنزاً
لذاك اليقينِ وأثمنَ ذُخْرِ
تَشُدِّينَ من أزره كُلَّ يومٍ
وتَنْفِينَ أىَّ جنوحٍ لِكُفْرِ

فبـاتَتْ عـفـاريتُ جِنّ جمـيلةَ
ذاهلةَ اللُّبِّ فى كُلِّ شِـــبْــــرِ
وسـارَعَتْ اليـومَ ترجـو ابتـلاءً
جــديدًا وتمكُرُ أسْـــوأَ مَكْرِ
وتـأتى بداءِ عُـضَـــالٍ شــديدٍ
يَهُـدُّ الصَّلابَةَ فى أىّ صَـدْرِ !

(٤٣)

وذلكَ يا صـاحبى مـا سَمِـعْتُ
بِأُذْنى ولَيْسَ وليـدَ الخَـبَــالْ
وألمحُ فى عَـــيْنكَ الآن شكـا
وخوفًا من الخُرْقِ صِنْو الضّلالْ
ولكننى مــثل كُلِّ الحـيَــارَىَ
وأَسْـعَى لفَـوْزٍ بعـيـدِ المَنَالْ
فكيفَ أُعينُ الفـقـيرَ الشَّـقِىَّ

على سَـــقَمٍ مُنْذِرٍ بالوَبَالْ ؟
وكـيـفَ بِصَـبْـرٍ على يأْسِـهِ
إذا ما أُصِيبَ بداءٍ عُضَالْ ؟
وهل كان هَمْسُ التُّرابِ العجيبِ
من الوهم أو شَطَحَاتِ الخَيَالْ ؟
أليسَ حـديثُ التُّـرابِ الصَّـدوقِ
نذيراً يقــولُ بِقُــرْبِ الزَّوَالْ ؟
ألا إن هَمِّي ثقــيلٌ ثقــيلٌ
تنوءُ بِهِ راسـيـاتُ الجِـبَالْ !

(٤٤)

ولاحَ بعينِ نظيمةَ لمعٌ غريبٌ –
نذيرٌ بقربِ الضّرَامْ
وخِفْتُ اشتعالَ التَّأَسِّي المريرِ

وخِفْتُ الرُّؤَى وانفلاتَ الزِّمَامْ

فَأَطْرَقْتُ فى أَلَمٍ حائرًا

وَلَمْ أَسْتَزِدْ من حديثِ المنامْ

وإذْ بالرَّذاذ تَسَاقَطَ من حَوْلِنَا

فَاترًا مثلَ دَمْعِ الغَمَامْ

وسَرْعَانَ ما جَاءَ صَوْتُ المُؤَذِّنِ

يُعْلِنُ آخرَ شَهْرِ الصِّيَامْ

وأَسْرَعَتْ الريحُ فى مِثْلِ عَصْفٍ

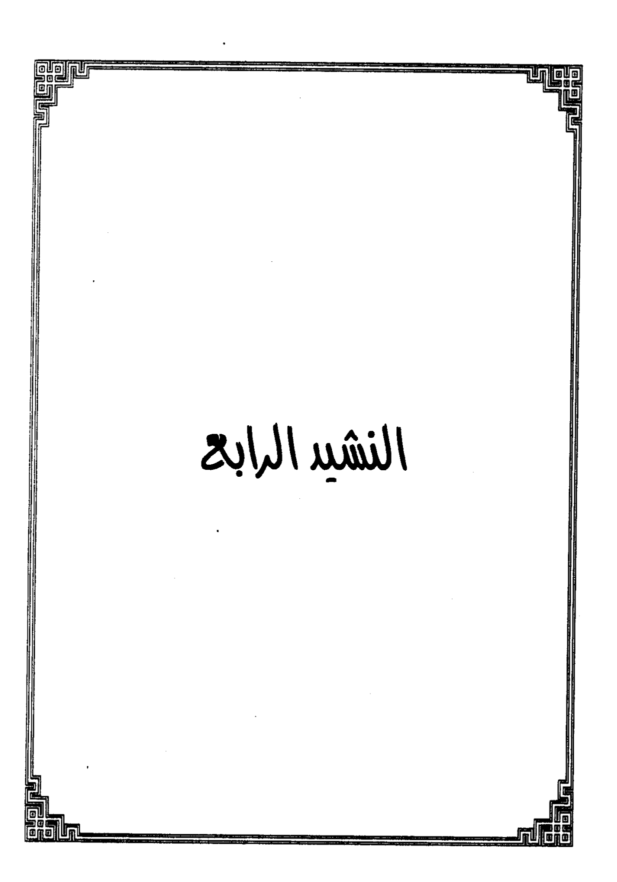
يحثُّ المَسَاءَ وزَحْفَ الظَّلامْ

وكنتُ أَخَافُ شآبيبَ ذَاكَ الربيعِ

وأَخْشَى شُرُودَ الكلامْ

ولكننى يا أخى قد دَهِشْتُ إذْ افْتَرَّ

ثَغْرُ نظيمةَ عمّا بدا كابتسامْ !



النشيد الرابع

تَـوَقَّـفَ خِـلّـى وكـنـتُ أُتَـابـِعُ
مـا كـانَ ليلةَ عِـيـدٍ بَعِـيـدْ
وكنتُ تركتُ رشــيــدَ سنينًا
ولَمْ أَدْرِ مـاذا جَـرَى فـى رَشِيدْ
وكنتُ أريدُ اجـتـلاءَ المَصِـيـرِ
فــهْل هَدَّهُ اليــومَ داءٌ عنيـدْ ؟
وكـيفَ تلقَّــاهُ أيوبُ – بالكُفْـرِ
أمْ باصْطِبــــارٍ فَــــريدْ ؟
نظرتُ إلى صــاحـبى المتــأنِّى
وقد صـار صـاحبَ رأىٍ سديدْ
وآثرتُ ألاّ أعــيــدَ الســؤالَ
وإن كنتُ حــقًــا أريدُ المزيدْ
وبعــدَ السكوتِ وبعـد التَّــردُّدِ

قلتُ له إنّنى كـــالشّـــريدْ !
أعيشُ بإلقاءِ شِعْرِى وأَشْعُرُ
فى بَهْـمَــةِ اللَّيْل أنّى وَحِيـدْ

(٤٦)

وقلت لِخلىّ لقد كُنْتُ فى وَحْشَةٍ
دونَ أُنْسٍ ودونَ رَفــــــيقْ
وقَلْبِى مـــشـوقٌ لأهلِ رشــيـدَ
ودِفْءِ الخليلِ وصـدقِ الصـديقْ
فــإنىّ أعــيشُ مع القُـدَمَــاءِ
بآثارِ مــاضٍ بعـيـدٍ سـحـيقْ
وفى ذاك تعــزيةٌ عن خَــوَاءٍ
وفَـقْــرٍ مـقـيمٍ وهَمٍّ وضـيقْ
وكل مـــســـاءٍ أُغَنّى الملاحمَ

لِلْحـــالِمين بمجـــدٍ عـــريقْ
أُعَـوِّضُـهم عن شَـقَـاءِ الحـيـاةِ
بلحنٍ جـمـيلٍ وَصَـوتٍ رقـيقْ
فـكيـفَ أصُبُّ لـهـم هَـمَّ أيـوبَ
زَيْتًـا على نارِ ذاك الحَـرِيقْ ؟
وكـيفَ أتاهُ شـقـاءُ السـقـامِ
وأيـوبُ من عَــوَزٍ لا يُفِــيقْ ؟

(٤٧)

وقالَ صديقى غريبٌ كلامُك هَلْ كُنْتَ
تَحْدِسُ ما جالَ فى خاطِرى ؟
وهل كنتَ تَدْرِى بأنّ حديثَ المنامِ
يَجِئُ بسُقْمِ الغَدِ الغَادِرِ ؟
لقد صارَ أيوبُ خِدْنَ الفِراَشِ

يُقلّبُ جَنْبَيْهِ مِنْ مَرَضٍ كاسِرِ
ولا يَستريحُ بِنَومٍ ولا عِنْدَ صَحْوٍ
لِقُرْحٍ بِبَشْرَتِهِ فائِرِ
ولكنّه ليس يشكو الزمانَ ولا
ما أتى من أَسىً غالبٍ قاهِرِ
وكنتُ قليلَ الزيارةِ في الصَّيْفِ كيلاَ
أزيدَ تَأَسيِّ الفَتَى الصّابِرِ
وأَعْجَبُ كيفَ بِهِ قد تَكَتَّمَ ما فيهِ
من أَلَمٍ مُقْعِدٍ آسِرِ
وذاتَ مَسَاءٍ سمعتُ فَتًى يتغَنّى
بِلَحْنٍ نَظيمةَ فى الأَمَلِ الوَافِرِ !

(٤٨)

وساءلتُهُ كيفَ جاءَ بهذا الكَلاَمِ الرفيعِ

وهذا التـغَنىّ وتلكَ اللُّحـونْ

فقال : ''سمعتُ نظيمةَ تشدُو بِهِ ذاتَ يومٍ

بحفلِ زفافٍ بصوتٍ حنونْ

وعنـدي وعـند الشبابِ بِبُرْجِ رَشيدَ وُلُوعٌ

بصــوتِ نظـيمةَ لا بَـلْ جُنُونْ

فما إنْ سَمِعَنَا بِمُقدمِها وَالبِطَانَة حتـــىّ

سَعَيْنا لنجـــرعَ فَـــنَّ الفُـنُونْ

وسِرْنا طويلاً أنا والصحـابُ ركبنَا الصعـابَ

وفـــي الفَـنّ كلُّ الصعابِ تـهَونْ

سَهِرْنَا لِنَسْمَعَ ثـم نُـرَدّد حتّى الصـباحِ

وما غَمَضَتْ للصّحابِ جُفُونْ !''

وأدركتُ من مُجْمَلِ القَوْلِ أنّ نظيمةَ ليستْ

تُحــاوِلَ إلا اتّـــقَـاءَ العُـــيونْ

وتَقْبَلُ أجـــراً زهيداً يُســاعِدُ أُسْرَتَها فـى
صِراع الحياةِ وقَهْرِ المَنُونْ !

(٤٩)

ومَرَّ الشتاءَ كئيبَ الليالي وما من ضيَاءٍ لَدَيْنا
سِوَى ما ذَوَى منْ شُمُوُعْ
وأكثرتُ من طَرْقِ بابِ نظيمةَ كيْ أَطْمَئِنَّ علىَ
حَالِ شخصٍ عَصِيِّ الدُّمُوعْ
وكنتُ أريدُ التَّحقّقَ مما سَمِعْتُ وأُرضِى الفُضُولَ
بِقَلْـبٍ مُعَـنَّـى وَلُـوعْ
وفى كُلِّ يومٍ أراهَا تُغَنّى وتنشدُ من شِعْرِهَا
ما بَرىَ القَلْبَ بينَ الضلُّوعْ
وأيوبُ فى صَمْتِهِ صَابِرٌ بل يزيدُ اصْطِبَاراً
ويُبْدِى لِرَبِّ الوجودِ الخُشُوعْ

وكانَ إذا رَفَعَ الرأسَ كَرْهًا يعودُ طَرِيحًا
ومَـالَ بآلامِـه لِلْهُجُـوعْ
وأَخْبَرْتُ شاعِرَتِى بالذى ذَاعَ من فَنِّها حَسْبَمَا
رَدَّدَتْهُ القُرَى والنُّجُـوعْ
فقالتْ فذلكَ ما كنتُ أَخْشاهُ حَقًا وصِدْقًا
ولا تَعْجَبَنْ كيفَ أَخْشَى الذُّيُوعْ

(٥٠)

ولم أُبْدِ دهشـةَ غِـرٍّ ولكننى قلت إنى
أريدُ لألحـانهـا أن تَشِـيعْ
وأَقْبَلْتُ أدعُو نظيمةَ قَلْبًا وعَقْلاً إلى نَشْرِ
فَنِّ السـمـاواتِ بينَ الرُّبُوعْ
فما ضَرَّ مُطْرِبَ أىِّ زمانٍ وأىِّ مكانٍ شُيُوعُ
أغـانيـه بينَ الجـمـيعْ !

كأنّى به دَوْحَةٌ تستمدُّ الرحيقَ من الأَرْضِ

كى تَنْتَشىِ بالرَّحيقِ الفُرُوعْ

وأَصْغَتْ إلّى بِشِبْهِ اقتناعٍ ولكنّها تَتَحَاشى

الذُّيُوعَ بقلبٍ مَـــــرُوعْ !

وأَلْحَحْتُ فى كُلِّ يومٍ إلى أنْ تَلاَشَتْ مَخَاوِفُهَا

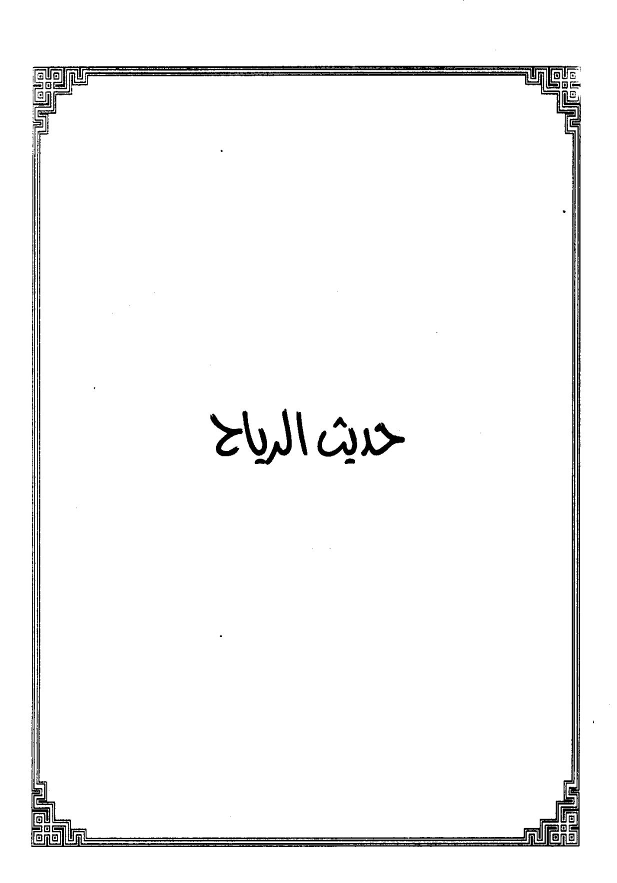
عند مَقْدمِ فَصْلِ الرَّبيعْ

وجَاءَتْ إلى النّاسِ تَشْدُو بِشِعْرٍ جديدٍ ورَنّاتِ

صَوْتٍ غريبِ اللُّحونِ بديَعْ

وأبْحَرْتُ فى لُجَجٍ من لُحونِ السَّماءِ بدونِ المَجَاديفِ

بل دُونَ نَشْـــرِ القُلُوعْ !


حديث الرياح

(٥١)

وحينَ تَمَلَّكَ لَحْنُ نَظيمةَ سَمْعَ الحُضُورِ

لَخَفْقٍ بِقَلْبٍ غَزَاهُ انتشاءْ

تَخلَّتْ عن المُنْشِدِينَ الصِّغَارِ وكنتُ أنا

بَيْنَهُمْ مثلَ طَيْرٍ بأعْلَى سَماءْ

وَرَنَّتْ نُغُوم الرَّبَابِ الجميلِ على غَيْرِ إيقاعٍ

ما فاتَ من نَغَمَاتِ الهَنَاءْ

وقالَتْ سأُنْشِدُ لَحْنَ المَلاَئِكِ دونَ دُفُوفٍ

كما جَاءَنِي في أمَاسِي العَلاَءْ:

(أ)

سمعتُ الملائكَ ذاتَ اللُّحونْ

تُغَنِّي عن القَلْبِ راعِي الفُنُونْ

وتَحْكِي عَنِ الحَقِّ حينَ تَخَفَّى
وأصَبْحَ يَبَدْوُ نَظِيرَ الجُنُونْ

(ب)

تقولُ بأنّ امتدادَ الزَّمَانْ
نُثَارٌ من الوَهْمِ فوقَ المكانْ
وأصداءُ حَقٍّ بعيدِ المنالِ
يغيبُ عن العَيْنِ فى كُلّ آنْ

(٥٢)

(جـ)

وليسَ الزَّمَانُ نظيرَ الزَّمَنْ
ولكنّه عابرٌ مُرْتَهَنْ
ملامحُ من خُطُوات الأَبَدْ
ودَيْمُومَةٍ تَتَخَطّى المِحَنْ

(د)

وكُـلُّ جَـديـدٍ بِـأيَّـامِكُـمْ
صَـدىً للقـديمِ بأَحْـلامِكُمْ
رُؤىً سابحاتٌ كمثلِ السَّحابِ
وتَبْـدُو كَــحَـقٍّ بِأَوْهَـامِـكُمْ

(هـ)

ألا تَشْـهَدُون رَبَابَ السَّمـاءْ
وأمطارَهُ فـوق أَرْضِ النَّمـاءْ
وفي فَـمِهِ الرَّعْدُ ينطقُ حَـقا
وبَسْـمَةُ رَحْمَـةِ بَرْقٍ مَـضَـاءْ

(و)

ولـكـنـكـم لا تَـرَوْنَ الـرِّيَـاحْ
بِظُلْمَــةِ لَيْلٍ ونُورِ صَـبَـاحْ

كأنّى بها الرُّوحُ سِرُّ الحَيَاةِ
تَدِفُّ ولكنْ بِغَـيْـرِ جَنَاحْ

(٥٣)

(ز)

كـأنّى بهـا من رِيَاحِ الخُلُودْ
نَرَاهَا بِأنْفَاسِ هَذَا الوُجُودْ
تَهزُّ الجُسومَ وتَغْذُو العُقُولَ
ونَرْجُو لها إن خَبَتْ أن تَعُودْ

(ح)

كـأنّى بهـا زَمَنٌ لا يَبِيـدْ
أو الأَبَدُ الحقُّ طلقٌ مـديدْ
فـمنْ أَزَلٍ لا قَـرَارَ لَهُ
إلى كُلِّ صَعْبٍ عَصِيٍّ بَعِيدْ

(ط)

وفى مَكْمَنٍ من خَبَايَا النُّفوسْ
سَتَلْقَوْنَ سرَّ الحَيَاةِ يَجُوسْ
عَلَيْكمْ بِتَـذْكَـارِ قَـوْلِ الرِّيَاحِ
ومـا قـد تُخَـبِّـئُـهُ منْ دُرُوسْ

(ى)

فـلا تَطْمَـعْ اليـومَ فى سـرِّهَا
بِهَمْسِ النَّسَـائِمِ أَوْ جَـهْرِهَا
ولكنْ تـأمَّلْ حَـديثَ الرِّيَـاحِ
وأَبْحِرْ مع الرُّوحِ فـى بَحْرِهَا

(٥٤)

ولَـمْ أكُ أُومنُ بـالمعـجـزاتِ الخَـوَارِقِ
(لَسْنَا بِعـصْـرِ النُّبُـوَّةِ والأَنْبِـيَـاءْ)

ولكنّنى – عندما اخْتَتَمَتْ قَوْلَها –
وَجَدْتُ البرُوقَ تَشُقُّ عَنَانَ السَّماءْ !
ولم أَسْتَطِعْ غَمْضَ عَيْنِى عَنِ البَرْقِ أَوْ سَدَّ
أُذْنِى عَنِ الرَّعْدِ فى جَنَبَاتِ الفَضَاءْ !
وقُلْ إنّنى قد ذُهِلْتُ طَوِيلاً وأَصْوَاتُ
ريحٍ تُدَمْدِمُ فى كُلِّ قاصٍ ونَاءْ
تُرَاهَا من الأَصْفِيَاءِ بِدُنْيا المَلاَئِكْ ؟
وأنّى لها أن تكونَ منَ الأصْفِيَاءْ ؟
وإنْ لم تكنْ من ذَوِى المُعْجِزات الكرام
فها هِىَ تغزو الربيعَ بِعَصْفِ الشّتاءْ !
فهل قالتْ الريحُ شيئًا لها أو أتاها
الملاكُ بِسِرٍّ تجلىَّ لها فى الخَفَاءْ ؟
وَقَفْنَا جميعًا ونحن نردّدُ هَمْسًا
نظيمةُ لا شكَّ من خَالِصِ الأَوْلِيَاءْ !

(٥٥)

وقلت لِخلِّى لَعَلَّكَ أَسْرَفْتَ فيما افْتَرَضْتَ

من القُوّةِ الحَقَّةِ الخَارِقَهْ

فبعضُ العَوَاصِفِ تَغْزُو الربيعَ وتغزُو الخَرِيفَ

بصاعقةٍ نارُها حَارِقَهْ

وكم شَهِدَ النَّاسُ مما بَدَا معجِزَاتٍ وليسَ

سوى شَطَحاتِ السّما الدَّافِقَهْ !

وهلْ للملائكِ أنْ تَسْتَجِيبَ لأحْلامِ فَرْدٍ

(ومَهْما تكنْ فى الكَرَى صادِقَهْ)

إذا لمْ يكنْ رَبُّ هذا الوُجُودِ يريدُ عِقَاباً

وإنذارَ أَهْلِ القُرىَ المارقهْ ؟

وهلْ يتَبَدّى لنا من سَوَادِ الأهَالِى مروقٌ

جديرٌ بصاعِقَةٍ ماحِقَهْ ؟

فقال لَقَدْ كان هذا بشيرَ اختلافٍ بأهلِ
رشيدَ ومعجزةٍ لاحقهْ
فقد أصبح الكُلُّ يدركُ أن نظيمةَ ليستْ
مُجَرّدَ مطربةٍ حاذقهْ

(٥٦)

وسرعانَ ما أَثْبَتَ الحدثان حقيقةَ ما قالَ
أهلُ القُرىَ عن رُؤَاهَا الحكيمهْ
فكانتْ تَمُدّ الضعيفَ بقُوّةِ روحٍ من الشّعْرِ واللَّحْنِ
يُحْيى العِظَامَ الرَّميمَهْ
ويَلْقَى المريضُ به ما يَزِيدُ الفؤادَ ثباتًا
ويَغْشَى الخيالَ ويُذْكى العَزيمهْ
وكانت تمدُّ الفقيرَ ببعضِ العَزَاءِ عن الضِّيقِ
فى رِزْقِهِ والدُّروب السَّقِيمهْ

وتدعـوهُ للبـيتِ حـتى يَرَىَ كـيفَ يَصْـرَعُ أيّوبُ

بالصّبْـر أوجـاعَ جـسمٍ أليـمـهْ

وكـــانتْ تُقَبــرِّبُني كلَّ يـومٍ بدفءِ الولّيِّ

وآياتِ عَطْفٍ وصِدْقٍ حَـمـيـمـهْ

وكنتُ تخطيتُ طَوْرَ صـبَـاىَ الغـريرِ وإنْ كنتُ

أرْجُـــو مـن الله لى أن يُديمَهْ

لأنىّ أخـافُ إذا مـا شَـبَـبْتُ عن الطَّوْقِ ألاّ

أظَلَّ الأثيـرَ بدُنْيَـا نَظيـمـهْ

(٥٧)

وقلتُ لِخلىّ فـذلكَ منْ سَنَواتِ صِـبَـاكَ فكيفَ

بدا الآن شيئًا طَريفًا شَجِيًّا ؟

لقد هِجْتَ يا صَاحِ أشْجانَ من صَاحَبَ اللَّفْظَ دَهْرًا

فَتَاهَ وما عادَ فى النَّاسِ شَيَّا !

لماذا تركتَ الدِّرَاسَـةَ مِـثْلِى ورُمْتَ الخَـيَـالَ

فَخَـالَفْتَ رُشْـدًا وعَـقْـلاً ذَكِـيّا ؟

وكـيفَ انْتَـهَى حُبُّ ذاكَ الغِنَاء بِفَـقْـرٍ وكـيفَ

نَبَـذْتَ ورَاءَكَ عَـيْـشًـا رَضِـيّـا ؟

إِخَـالُكَ فى أَسْـرِ ذَاكَ الغِنَاء تركتَ الحَـيَـاةَ

لِعِشْقِ التَّـهاويِمِ بالشِّـعْرِ غَيّا !

وكـيفَ انتـهى أمـرُ أيوبَ قُلْ لى بصـدقٍ وأَفْـصِحْ

فـإنّك مـا كنتَ يومًـا عَـيِـيّـا !

وهل صَحَّ حُلْمُ نَظْيـمـةَ بالبُـرْءِ بعـد اصْطبـارٍ

فـعـادَ إلى الناسِ كـهلاً سَـوِيّا ؟

وهل مـا انْطَفَـا من لَهيبِ الشبـابِ يعـودُ إلى المَرْءِ

بالرّوحِ حـتّى يَعُـودَ فَـتِـيّـا ؟

وأطْرَقَ راويتى ساعةً ثم قالَ وَهَا قد مَضَتْ

سنواتٌ عجافٌ ضروسْ

وزاد اشتدادُ الكروبِ على أُسْرةِ الصابرِ المستكينِ

وزادَ انقباضُ النفوسْ

وكان لِصَوتِ نظيمةَ فى شَدْوِهَا بهجةٌ مثل أزكى

رحيقٍ بأزكى كؤوسْ !

وكانت تُخَفّفُ لذعَ المعاناةِ عن كُلّ قلبٍ فتحيى

رجاءَ الحزين اليئوسْ

وشاعتْ بدائعُ ألحانِها ثم ذاعَ صداها فأصبحَ

فى كل صُقْعٍ يجوسْ !

وما عَتَّمَ الناس أن آمنوا أن طَرْحَ القُنوطِ هو الدرسُ

بل هو أسمى الدروس !

فلم يعد الفقر يبدو أليمًا ولَمْ يَعُدْ الداءُ يحملُ
وجهَ الكريه العَبوسْ !

وأصبح أيوبُ رَمْزَ الصُّمود يهزُّ قلوبَ العُتَاةِ
فيحنون شُمَّ الرؤوس !

(٥٩)

وَأَصْدُقُكَ القَوْلَ يا صاحبى إنّنى غبتُ فى لُجَّةِ اليأس
هذى السنين العِجَافْ

وكانتْ حياتى بِبَحْرٍ نظيمةَ مثلَ السّباحةِ فى نَهْرِ
حُبٍّ عميقٍ وصَافْ

أغالبُ أَمْوَاجَهُ لا أخافُ هَلاَكَ الغَرِيقِ ولا
أبتغى نَجْوَةً بالضّفافُ

كأنّى أرى بالضِّفافِ بَلاَقِعَ مُجْدِبَةً قد بَرَاهَا
اشتدادُ الظَّمَا والجَفَافْ

وما كنتُ أرنو إلى رَغَدِ العَيْشِ بل اكتفى بالفُتَاتِ

من الرِّزْقِ قيدَ الكَفَافْ

وكنتُ وغيرى من المنشدين الصغارِ بدنيا نظيمةَ

نلتفُّ أيَّ التفافْ

نُصَاحِبُها بل نُشَارِكُها ما تَقُولُ وتَفْعَلُ فى كُلِّ

بادٍ لَدَيْهَا وخَافْ

وفى القَلْبِ من فَرْطِ حُبِّ اللُّحونِ هناءٌ عميقٌ يكادُ

يُذِيبُ حَواشِى الشَّغَافْ

(٦٠)

إلى أنْ أَتَتْ ليلةٌ من ليالى الربيعِ وكُنَّا

نُغَنِّى لَدَى مُوسِرٍ غَدِقِ اليَدِ جَمِّ العَطَاءْ

إذ انتابَ شاعرتى ما بَدَا كالتَّجَلِّى فَأَوْقَفتِ

اللَّحْنَ والْتَفَتَتْ مثلَ عَبْدٍ يُلَبِّى النِّدَاءْ

وتاهتْ عن الجَـمْعِ نَظْرَتُهـا كـالذى يَتَنَاجَى

وحيداً بِدُنْيَا مشارقُها غامراتُ الضِّياءْ

وحارَ الصِّحاب - وكنّا على عَتَبَاتِ الشَّبابِ -

ولكنّنى لمْ أحِرْ بل رأيتُ انتهاءَ البَلاءْ

وبَشَّرْتُ صَحْبِى ونَحْنُ نُحَدّقُ فيما بَدَا من

بعيدٍ كَبَرْقٍ بأنَّ المريضَ أتَاهُ النَّجَاءْ

وإذْ بالرُّعُودِ تُدَوِّى وبالرِّيحِ تَعْصِفُ والماءُ

كالسَّيْلِ يجرى وبالأرضِ تَرْتَجُّ رَجّ انْتِشَاءْ

وإذْ بنظيمةَ تَبْسِمُ مُشْرِقَةً وَهْىَ تَمْضِى

إلى البَابِ تَفْتَحُهُ لِلّذِى جاءَ جَمَّ الرُّوَاءْ

أَجَلْ كان ذلك أيوبَ يخطوُ بغيرِ عَصًا

على قَدَمَيْهِ كمنْ لم يُحَطِّمْهُ من قَبْلُ دَاءْ !

وصِحْتُ لقد حَقّقَ الله مُعجزةً من سَمَاهُ
وها أنتمو تَشْهَدُون الثَّوابْ
لقد أَثْبَتَ الصَّمْتُ فى صَبْرِهِ أنه مُفْصِحُ عن
عَزِيمةِ من ذَاقَ ذُلَّ العَذَابْ
وهاكم صِحَابى رفاقَ التَّغَنّى بِشِعْرٍ نَظِيمَةَ
خيرُ سبيلٍ لحُسْنِ المآبْ
ألا فاثْبَتُوا فى مَراقِى الفُنُون وصِدْقِ الرؤى !
ألا فانْشُدُوا الحَقَّ خَيْرَ المَثَابْ !
وهلْ بَيْنَنَا من يُخَامِرُهُ الشَّكُّ فى أننا قد
عَرَكْنَا الزَّمَانَ ودُسْنَا الصِّعَابْ ؟
نَزَلْنَا بِبَحْرٍ غَرِيبٍ علينا فَغَرَّبَنا فى
صِراعِ التَّحَدّى بِخَوْضِ العُبَابْ

ومـا أَنْقَـذَ اليـومَ أَيُّوبَ غَـيـرُ التـفـافِ المُحِـبّينَ

من حَـوْلِهِ وثَبَـاتِ الصِّـحَــابْ

ومـا كـانَ نِضْـوُ العَـيَـاءِ يؤوبُ إذا لم يكنْ فى

غِنَاءِ نظيــمــةَ سِــرُّ الإيابْ

(٦٢)

وهَلّلَ من كــان حَــوْلِى لِقَــوْلى وأُهْرَعَ قَــوْمٌ

إلَيْـهِ كـأنّ الذى شَاهدُوهُ سَـرَابْ

تَحَـسَّـسَـهُ البـعضُ وهو يكذّبُ عَـيْنَيْـهِ أوْ ظَنّ

أن المســاءَ أتى بالضَّــبَــابْ

وكــيفَ يعــودُ إلينا طريحُ الفِــراشِ بِجِـسْمٍ

صَـحِـيحٍ وبَعْـدَ فَـواتِ الشَّـبـابْ

تســاءلَ من كــان حَـوْلِى وكـيفَ تَسَنَّى له أن

يَقُـومَ فَـيَـهْـزِمَ طولَ اغـتـرابْ

ومن عَـجَبٍ أنّ صـاحِـبَنَا كـانَ جَمَّ الثَّـبَـاتِ
فَـبَـدَّدَ فى النَّفْسِ كُلَّ ارتيـابْ
يَسـيـرُ رَزِينًا ولا يَرْتَضِى الاسـتنادَ إلى
أَحَـدٍ بَعْـدَ هذا الغِـيَـابْ
وقالتْ نظيمةُ يا صَحْبُ لا تَعْجَبُوا من شِفَاءٍ
يُبَـشّـر بالسَّـعْـدِ من كُلِّ بابْ
فبالخِصْبِ سوفَ تموجُ الحُقُولُ وبالعُشْبِ كلُّ
المَرَاعِى وبالماءِ يأتى السَّحـابْ

(٦٣)

وخاصَمَ أَعْيُنَنَا النومُ حتى الصَّباحِ
ونحنُ نُهَنّئُ أَنْفُسَنَا بالشِّـفَـاءْ !
فقد عاد للصّامدِ الصَّابرِ المُطْمَئِنّ
صِبَـاهُ ولم تَبْقَ إلاّ وعـودُ الثَّـراءْ

وكان الصباحُ جميلَ المُحَيّا وَضيئًا

يفيضُ ببِشْرٍ عَميمِ السَّنا والسَّنَاءْ

وأشْرَقَتِ الشَّمْسُ مثل الحقيقةِ تَعْلُوُ

كأنْ لم يَكُنْ عاصفُ غاطسُ بالمَسَاءْ

ونِمْنَا وفى الجَفْنِ حُلْمُ النَّعيمِ المُرَجَّى

وفى النَّفْسِ أَصْدَاءُ وَعْدٍ بِصدْقِ الرّجاءْ

ولكنّ كرَّ الشهورِ أتى بالذى

قَهَرَ الحُلْمَ بل فَتَّ فى عَضُدِ الأوْفيَاءْ

فَأَقْعَدَنا الجَدْبُ واشْتَطّ فينا الهُزَالُ

وشَلّ اللِّسانَ وكادتْ تَجِفُّ الدِّمَاءْ

وها أنَذَا جِئْتُ أَطْلُبُ قَرْضًا لِنَفسْى

لأُبْعِدَ عن خاطرى اليومَ رُعْبَ الفَنَاءْ !

وعادَ الصديقُ إلى الصَّمْتِ فى حَيْرَةٍ مثلَ ضَالٍّ
يَهِيمُ على وَجْهِهِ شَارِدَ اللُّبِّ فى كُلِّ وَادِ
ولم أكُ أَعْزُو اكتئابَ صديقى وحُزْنَ الفؤادِ
إلى ما يُعانيه من فاقةٍ أو شَتَاتِ المِهَادِ
وقلتُ لَعَلّ الفَتى قد تكتّم سراً مُهِمّاً
فلم يَجْنِ إلا التأسّى وحيداً وطولَ السهادِ
فهل قَطَعَ العُمْرَ ينشُدُ حلمًا بعيدَ المنالِ
ويُخْفى حقيقَتَه دائمًا عن عُيُونِ العبادِ ؟
وهلْ كان يَحْلُمُ أنْ يصبحَ الشّاعرَ العَبْقَرِيَّ
فخابَ وأصْبَحَ يكسُو الحياةَ بِلَوْنِ السَّوادِ ؟
وهل كان يهوى نظيمةَ سِرّاً ويكتمُ ما
يَعْصِرُ النّفس عصرًا ويَحْرِمُ جَفْنَيْه نُعمى الرقادِ ؟

وأَحْـسَـسْتُ أنّي أنا مِـثْلُهُ حـائرٌ قـد تقطَّعَ
مـا كـان يَرْبِطُنى بالحـيـاةِ لِطُولِ ابتـعـادى
وقَـرَّرْتُ سـاعَـتَـهـا أن أعـودَ إلى مَـوْطِنى فى
ثَبَـاتِ الذى ملّ طُولَ التَّنَقّل بين البـلادِ !

(٦٥)

وبعـد استـضـافةِ خِلّى زمانًا قضـيناهُ فـيمـا
بَدَا كـالوداعِ لِوَهْمٍ مُـحَـالِ
رَكِـبْنَا مـعًـا عـائديْنِ إلى مَـوْطِنى وفُـؤَادى
يموجُ بذكـرِ قَـديمِ اللَّيـالى
وأَحْسَسْتُ عُمْري يَغِيضُ وشِعْرى يفيضُ لِيَطْرَحَ
فى مَسْمَعِ الصبْحِ مُرَّ السؤَالِ:
تُرىَ هَلْ تَغَـيّـرَتِ الآنَ – بعـدَ السنينِ الطِّوَالِ –
مَرَاتِعُ لَهْوِى بِظَهْرِ الرِّمَالِ ؟

فكمْ من سُوَيْعَاتِ سَعْدٍ قضيتُ وحيداً أُغَنِّى

بِكُثْبانِها أو بِبَعْضِ التّلالِ !

وكنتُ طُوَالَ الطَّريقِ أَرَاهَا بِعَيْنِ خَيَالي

حَمَارَّةَ قَيْظٍ وَبَرْدَ ظِلاَلِ

وأُذْني تَرَى فى نُغُومِ الحُرُوفِ فُتُونًا كَوَقْعِ

بَهَاءِ المُحَيّا وسِحْرِ الجَمَالِ

وها قد تَغَيّر حُلْمُ الزَّمانِ غَدَاةَ اغْتِرَابى

وما ذُقْتُهُ من تَبَدّل حَالي

(٦٦)

وقُلْتُ لِنَفْسي عَشِيّةَ أنْ لاحَ رَمْلُ رشيدَ

ومَاءُ القناةِ ورَوْضُ أَرِيضْ :

هنالك يَفْتَرُّ ثَغْرُ الزَّمان ويَرْجِعُ بالعُمْرِ

ساقى المَشَاعِرِ مُوحي القَريضْ

هنا يتــغنّى هَزَارُ الطبـيـعـة فـوقَ الغُـصــونِ

فَيُذْكي الشَّبابَ ويَشْفي المَريضْ !

وقلتُ لِخلِيّ فَـذَلِكَ مـا جَـاءَ بي من شَـتَّــاتٍ

إلى الحُبّ فى كلِّ قلبٍ يفـــيضْ

ولكنّ خِلـىِّ بدا شــــــارد اللب ثم انثنى

يُغَنّى نشـيـدًا بصـوتٍ خَـفِـيضْ

وفى الوَجْهِ فَرْحَـةُ من لَمَحَ السَّعْدَ يأتى حَثِيثًا

وفي العَــيْنِ برقٌ ولمع وَمِــيضْ

عـجـبتُ فـقـد كـانَ خِلّى حَـزِينًا كـئـيـبًا وألْقَى

به الحُزْنُ فى دَرَكَاتِ الحَضيضْ !

فكيفَ بهـذا الحَـزِينِ بَشُـوشًـا سَـعِـيدًا وكـيفَ

تَحَــوّلَ فى لَحْظَةٍ للنَّقِــيضْ ؟

وسَرْعَانَ مـا جاءَ تفسيرُ مـا كـانَ لُغْزًا غـريبًا
فَـأَذْهَبَ عنّى دواعى العَـجَبْ
إذ التـفَتَ الخلُّ للرَّوْضِ من حَـوْلِنَا فى انْتِـشـاءٍ
ونحـنُ جــوارَ الرياضِ نَخُبّ
وقـالَ فـهـذى الرياضُ لأيوبَ قـد أثْمَـرَتْ
واكْتَسَتْ سُنْبُلاً بنواصى الذَّهَبْ
وتلكَ الغُـصـونُ تَتِـيـهُ بزَهْرٍ جَـمـيلٍ ، ولَوْنُ
الوُرودِ يَضِجُّ بوقْـــدِ اللَّهَبْ
وتلكَ الميـاهُ تسـيلُ بلَحنِ الخَـريزِ الجـمـيلِ
لِنَنْسَى به الآن مـا قـد نَضَبْ
وقـال لَعَلّ الإله اسـتـجـابَ لأيوبَ حـقًّـا -
وهـا نحنُ من دارِهِ نَقْـتَـربْ

وأشْرَقَ فى الخلِّ بعضُ الصَّفَاءِ القديمِ فَأمْسى يُغَنِّى
لحــونَ غــرامٍ تُشــيعُ الطَّرَبْ
وزَالَتْ مــشــاقُّ الرحــيلِ عن النَّفْسِ بل زَالَ عَنَّا
جـمــيعُ الذى هَدَّنَا من نَصَبْ !

(٦٨)

وعندَ الوُصــولِ ســمــعتُ الذى خِلْتُــهُ لحنَ حُبٍّ
تكادُ عــذوبتُــه أن تبــوحْ
إذ اسْـتَـقْـبَلَتْنَا لدى البـابِ حـوريةٌ فى صِـبـاها
بقــدٍّ رشــيقٍ ووجــهٍ صــبــوحْ
وخِلْتُ كـأنّ بصـفـوِ المُحَيّـا عـبـيـرًا خَـفِـيًـا
بِهِ كُلُّ عِطْرِ الصَّــبــاحِ يَفُــوحْ
بِهِ مــثلُ قَطْرِ النّدى لؤلؤٌ ســاطعٌ فــوقَ زَهْرٍ
بروضٍ تَنَاثَرَ فــوق السُّــفُــوحْ

وفى طَرْفِها حَوَرٌ ساحرُ النُّورِ كالفجرِ يَزْهُو
وفى كُلِّ آنٍ وصُقْعٍ يلوحْ
وأَحْسَسْتُ أنّى أنا الكهلُ أَرْنُو كليلَ اللّسانِ
مخافةَ أنْ يتبدّى جُنُوحْ
وقُلْتُ فيا لَيْتَني عُدْتُ شابًا شَرِيدَ الزّمانِ
لأُطْلِقَ خَيْلَ خَيَالي الجَمُوحْ
وقلتُ فليتَ العَليلَ يرىَ فِطْرَةَ الله فيها
فَيَشْفيِ الهَوَى غَيْرَهُ من جُروحْ !

(٦٩)

وغبت عن الركب آنًا كأنى أناجى الهواء
وأَقْتَاتُ فى خَاطِرِى بالخَوَاءْ !
وغام الوجود بعين الذهول إزاء الجمال
كأنّ الوجودَ قرينُ الفَضَاءْ

عَجِبْتُ وقلتُ وكيفَ وقد جُزْتُ طَوْرَ الشَّبابِ

ولم يَبْقَ فى القَلْبِ إلا الهَبَاءْ

وأَيْنَ التَّعَقُّل أين التَّرَوِّى بِلَحْظَةِ نُضْجٍ

وحِكمةِ رُوحٍ ذَوَتْ من جَفَاءْ

تُرانى أُصِبْتُ بِوَهْمٍ جديدٍ يَشُلُّ الحَوَاسّ

كمن صَعِقَتْهُ بروقُ السّماءْ ؟

تَمَالَكْتُ نفسى قَليلاً وعُدْتُ إِلَيهْا ذَليلاً

أُسَائِلُها سِرَّ هذَا العَنَاءْ

ولم أَدْرِ هَلْ صاحِبى الآنَ يدرِى بما كان مِنّى

تُراه تَبَيّن سَهْمَ القَضَاءْ ؟

وأَيْقَظَنى من دُوَارِ التَّسَاؤُلِ (قَيْدَ الذُّهُولِ

بِسِحْرِ الجَمالِ) عجيبُ غِنَاءْ !

ومـا كـانَ إلا غِنَاءَ الصـديقِ جـمـيـلاً حَـزِينًا

كَـمَنْ يَتَـشَكّى عـذابَ الغَـرامْ

فـهلْ كـانَ ذلكَ سـرَّ شـقـاءِ صـديقى ؟ عَـجِبْتُ

ورُمْتُ سـمـاعَ حـديثِ الهُـيَـامْ

وبعـد السـلام وتَذْكَـارَ جَـوْرِ الزَّمـانِ وكَـيْفَ

يعـودُ ابتـسـامًـا لِبَـعْضِ الأنَامْ

لَقِـيتُ نظيـمـةَ فى بَهْـجَـةِ النَّصْـر تَزْهُـو بِبِـشْـرٍ

وتَنْشُـــرُ فى النّاس رُوحَ الوِئَامْ

وألْفَـيْتُ أيوبَ كـالمَلِكِ الحَقّ يَخْـتَـالُ فـرِحًـا

بِعَوْدِ الصـَّفَـا وانْقِشَـاعِ الغَمَـامْ

وعِنْد المَسَـاءِ خَلَوْتُ بِخِـدْنى لأعْـرِفَ منه

حـقـيـقـةَ مـا هَدَّهُ من أُوامْ

ومــا لَبثَ الخِلُّ أن قَصّ قِـصَّــتَـهُ فَـأفَـاضَ
بقــولٍ صَــريحٍ أمَــاطَ اللِّثــامْ
وهَاكُمْ صِـحَـابى حـديثَ الخليلِ ومـا قـالَهُ لى
بِصِدْقٍ يَزيدُ اشـتـعالَ الضّرامْ :

(٧١)

وقـالَ صـديقى : لقـد كـانَتْ البنتُ بنتَ جـمـيلةَ
(من هَـجَـرَتْ حين مـالَ الزّمَـانْ)
وكنتُ أرَى فى طُفُـولَتِـهـا بسـمـاتِ الرّبيعِ
ونَـوْرَ الـزُّهُـورِ ودفْءَ الحَـنَـانْ
ولم أكُ غـيـرَ صَـبِىٍّ تَسَـاقى رحـيقَ الجَـمَـالِ
فَـعَــذَّبَهُ الحُبُّ قــبلَ الأوَانْ !
وعِنْدَ رحــيلِ جــمــيلةَ وابنتــهــا أظْلَمَتْ فى
عُـيـونى الحَـيَـاةُ وضَـاقَ المكانْ

وقلتُ : لقـد جَـارَ دَهْرِى فـشــاركتُ أيوبَ فى
خَوْضِ محنته (أىُّ حَرْبٍ عَوَانْ !)
سَـأَسْلُو هَوَاها وأَنْسَى لَوَاذِعَ قلبى الصَّـغِـيـرِ
وأُهْـرَعُ للشِّـعْـرِ فى كُـلّ آنْ
ووطّنتُ نفسى على الهَجْرِ واشْتَغَل القَلْبُ عَنْها
بِفَنّ الغنَاءِ وسِـحْـرِ البَـيَـانْ
وكنتُ أرى فى غِنَاءِ نظيــمــةَ تَسْــرِيَةً عن
عَــذَابٍ يماثُل لَذْعَ الهَــوَانْ !

(٧٢)

ولكنّهـا عـادتْ اليـومَ ! قـالَ صَـديقى فكيفَ
أُصَـالِحُ أَحْلاَمِىَ الضَّـائِعَـاتِ ؟
تُرانى سـأَنْسى سنينَ البِـعـادِ وأَنْسَى العَـذَابَ
وأفـتحُ للصَّـفحِ بابَ الحَـيَـاةِ ؟

تُراني سَـأنْسى الذى فَـعلَتْ أُمُّـهـا بأبيـهـا

وأقـبلُ بَعْـثًـا بِبَـرْدِ المَمَـاتِ ؟

تُراني سـأغْـفِـرُ صُـحـبـتَـهـا لجـمـيلةَ يَوْمَ

رحـيلٍ مـريرٍ غَـدَاةَ الشَّـتَـاتِ ؟

وكيفَ سَـأنْسى مُـغَـادرَةَ الرّكْبِ للبيتِ صُبْـحًـا

وفَـوْقَ الوُجُـوهِ ابتـسامُ النَّجـاةِ ؟

لقـد سَلَبَتْ أُمُّـهـا ثِقَـتى فى النّسـاءِ ولَوْلا

نظيـمـةُ مـا عدتُ أَعْـرِفُ ذاتى !

فـهل باتَ حُـسْنُ الوجـوه قِنَاعًـا ؟ وهل باتَ يزهو

بطُهْـرٍ على أوجـهِ الخـائناتِ ؟

وهل حُسْنُها فوقَ حُسْنِ الوَفَاءِ وأَحْلى من الصَّبْر

أو من صَدَى الشِّعـر والأُغنياتِ ؟

(٧٣)

وقلتُ له يا صـديقى حَـفِظْتَ حـديثَ التُّـرابِ

ومـا عُـدْتَ تذكـرُ نَجْـوى الأَملْ !

لقـد كـانت البنتُ آنَئـذٍ طفلةً غِـرّةً

بِعَـقْلٍ بـرىءٍ ولمّـا يَـزَلْ !

وَكلٌّ فـتـاةٍ تُحِبُّ أباها ولكنهـا تَتْـبَعُ

الأمَّ دَوْمًـا كَـشَـأْنِ الحَـمَلْ !

فكيف تُحاسِبُـها اليـومَ هذا الحسـابَ وكيفَ

تقـولُ لقـد زَلّ منْ لمْ يَزَلّ ؟

لقـد عـادَ أيوبُ للعَـيْشِ بالصَّـبْـرِ بلْ بِنَظيـمةٍ

فى شَـدْوِها عن رياح الأَجَلْ !

وأَحْـرىَ بِكَ اليـومَ أنْ تسـتـعينَ بما قُلْتَـهُ عن

تَخَطّى الصِّعابِ وصَبْرِ البَطَلْ !

فـإنْ شـئْتَ بَعْـثًا جـديدًا فـلا بُدَّ من طَيِّ هذى الصـحيفـةِ واسْلُكْ طريقَ العَمَلْ !

وأومـأ خِلىٌّ كَـمَنْ راقَـهُ مـا أقـولُ وفى العينِ جُـــرْحُ هـوىً باردٌ مُنْدَمِلْ !

(٧٤)

وأَحْــبَـبْتُ ألاّ أفـــارقَـه دونَ وَعْـدٍ بِنَفْيِ جـميلةَ من سـانحـاتِ الخَـيَـالْ

ولكنّ صـمـتًـا طويلاً تَحـدَّثَ عن عُـمْقِ جُـرْحٍ تَكَتَّـمـهُ صَـامـدًا كـالجـبـالْ

ويكرهُ أن يُشْـرِكَ الناسَ فـيـهِ لِئَـلاَّ يظنّوا به المَسَّ أو هَمَسَـاتِ الخَـبَـالْ

وطافتْ بِذِهْنِيَ صـورةُ مَنْ هَامَ حُـبـا بجـاريةٍ وَصْلُهـا من قَـبِـيلِ المُحَـالْ

وقلتُ لعلَّ الحـبـيبَ نظيـمـةُ ! لِمْ لا ؟ فـقـد
يَعْشَقُ القلبُ رغم ذَهَابِ الجَمَالْ
ومـا كِدْتُ أَهْمِسْ باسمِ نظيـمـةَ حـتّى انْتَـفَضْ !
كـمن عَـذَّبَتْـهُ ذُنُـوبٌ ثِقَـالْ
وأدركتُ أنّى أَصَـبْتُ بِحـدْسى فـذلكَ حُبٌّ
عـمـيقٌ بلا أملٍ فى الوِصَـالْ
وأشـفقتُ مما اعْتَرَى صـاحبى مـثل رِعدةِ رُعْبٍ
وأَحْجَمْتُ عن طَرْحِ أىّ سُؤالْ !

(٧٥)

سَهِرْنا وبعد انْفِضَاضِ الكَلَامِ افترقْنا وفى النَّفْسِ
آثار لَذْعِ انفـضـاحٍ صُـراحْ !
ولم أَلْقَ فى الجَفْن أىَّ بَصِـيصٍ من النَّومِ يُسْكِنُ
ثائرَتـى وانْكِسَـارَ الجَنَاحْ

وعند انبِـلاَجِ الضّـيـاءِ هُرِعْتُ إلى مَنْزِلِ الخلِّ

أَنْشُـدُ تضـمـيـدَ كُلِّ الجـراحْ

وفى الجَـوّ من بَسَـمَـاتِ الربيعِ شَـذًا من زُهورٍ

رشـــيـــدَ بكلِّ الرُّبا والبطاحْ

عـبـيـرُ من النَّوْرِ فى أرضِ أيوبَ شـرقًـا وغـربًا

يُكلّلُ هامـتَـهـا كـالوِشَـاحْ

وفى النَّفْسِ آمـالُ بَعْثٍ جـديدٍ يجـوبُ الرّياضَ

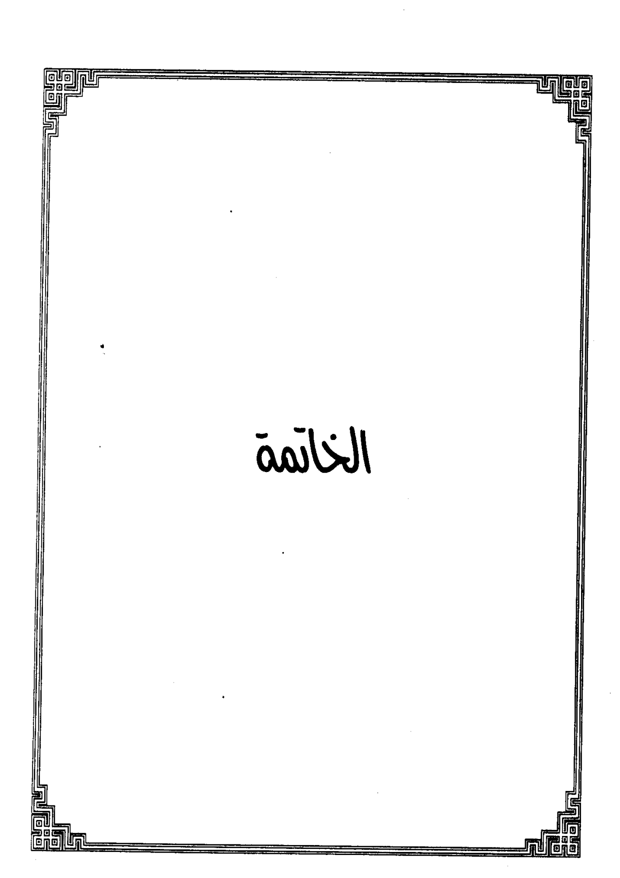
وأحـلامُـهـا مطلقـاتُ السَّـراحْ

ولكننى لم أَجِـدْ صـاحبى بل سَمِـعْتُ بأنّ الفَـتَى

غـادرَ الدَّار عِنْدَ الصَّـبَـاحْ

سَـأَلْتُ ولكنّنى لم أَجِـدْ للصّـديقِ سَـبِـيـلاً

كـمن ذَابَ فى دَفَـقَـاتِ الرياحْ



الخاتمة

(٧٦)

وها أَنَذَا يا رِفَـاقَ المَسَـاءِ

أقصُّ عليكمْ حـديثَ الزَّمـانْ

وكمْ كنتُ أرجو ختامًا سعيدًا

لصـبـرٍ طويلٍ غَـذَاهُ الحَنَانْ

وحُبٍّ عـميقِ الجذور تَرَعْـرَعَ

صِـدْقًا فـأنطقَ سِـحْرَ اللّسـانْ

ولكنّ هذا الصـديقَ اخـتـفى

كمن خَسَرَ الشَّوطَ عند الرِّهانْ

لقد هَامَ حُبًا بِصـوتٍ رَخِيمٍ

وألحانِ من عَشِقَ المشـرقانْ

فـشِـعْرُ نظيمـةَ يحـيا لَدَيْنا

تغنَّى به كلُّ قـــاصٍ ودَانْ

أحـالَ القِـفـارَ رياضًـا ترفُّ

وجـــاءَ إلى أرضِنا بالجِنَانْ

ومـــا كـــان إلاّ دعـــاءً لقلبٍ

بإيمانه قـــد تَخَطَّى المكانْ !

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٤/١٠٤٢٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 9073 - x